
كاهن الجان
ترجمات
جوزيف شيريدان
ترجمة: بسمة الخولي
ساحر الكتب



البداية

مارتن هاسيلياس – الطبيب الألماني.

على الرغم من سِعة دراستي في الطب والجراحة، إلا أنني لم امارس أيّا منهما عمليًا. لم تنخرط أصابعي والمشرط الفضي الحاد بينهما في شق لحم مريض، أو تصفية الدمامل الصفراء اللزجة من القيح. تُراجعي عن الانخراط العملي في مهنتي لم يكن – أبدًا – كسلًا مني، أو تخاذلًا. لا، لا لم أكن لأتهاون في أداء مهمة بنبل الطب. إلا أنني – للأسف – كنت عاجزًا بيدي بعد حادث عبثي مع سكين جراحة تسبّب في ضرورة بتر إصبعين من أصابع يدي فورًا.

فقدان إصبعي، وعدم القدرة على ممارسة المهنة التي أحب عمليًا، أفقداني التوازن النفسي أيضًا، ومعه بدأت صحتي بالتدهور حتى ما عدتُ قادرًا على البقاء في المكان ذاته لأكثر من اثني عشر شهرًا. عزائي الوحيد كان تلك الكتب التي عكفتُ على قراءتها والأحداث التي ألقاها القدرُ في طريقي كتعويض عما فقدت أسفل سن سكين الجراحة.



أثناء سنوات تجوالي القسري قابلته للمرة الأولى؛ د. مارتن هاسيلياس. طبيب عاشق لمهنته مثلي، كثير التجوُّل مثلي، لكن – على عكسي في هذه النقطة – كان تجواله بكامل إرادته الحرة، لا هربًا من اكتئاب؛ بخلافي أيضًا لم يكن الطبيب ثريًا، أو ثريًا بالمعنى الذي اتفق عليه آباؤنا هنا في إنجلترا، ماذا كان المصطلح المستخدم؟، نعم "وليد الظروف الملائمة".. المصطلح الذي أطلقه أفراد الطبقة الاجتماعية فوق المتوسطة على مرتادي النوادي والاجتماعات الموسمية، لقاءات الشاي والسيجار حول البيانو الأسود ذي الشرشف الدانتيل الأبيض.

كان ذكيًا، أكبر وأكثر خبرة منّي بنحو خمسة وثلاثين عامًا. لذا ارتقى بسهولة من خانة المعرفة إلى خانة الاحترام والتقدير وسرعان ما أصبحت أتطلع إليه بنظرة التلميذ للمعلم. الطبيب كان واسع المعرفة، شديد الإطلاع، جمع بين ما تعلّمه وما استمر في كسبه من معرفة لاحقًا وبين حدسه؛ لذا كان مصيبًا في أغلب الأوقات. تعلقي بمعلمي استمر في الازدياد والرباط بيننا زاد قوة، تلك القوة تحملت عشرين عامًا ولم تنقطع حتى بعد وفاته.

بقيت تلميذاً تحت إشراف د. هاسيلياس لعشرين عامًا، كطبيب، مستشار، ومدير لأعماله. وضع تحت رعايتي كامل ملفاته وكتبه لأرتبها بمعرفتي، أذيِّلها بملاحظاتي أو أتركها كما هي إن لم يكن هناك حاجة لتدخُّلي.

كانت لدى د. هاسيلياس طريقة مميزة في التعامل مع ملفات المرضى أو الحالات التي تمر عليه، يقسمها إلى فئتين؛ الأولى تلك الحالات التي يلتقيها بالنهار في عيادته أو في زياراته الخاصة، والثانية تلك التي يراها ليلًا حين ينطلق إلى الأكاديمية أو المجتمعات البحثية. أغلب الحالات الليلية كانوا موتى. لكنه لم يفرِّق بينهم وبين أحياء النهار، لم يفضل التركيز على فئة على حساب الأخرى. في نهاية كل فئة كان يجمع كافة ملاحظاته وأفكاره ثم الاستنتاجات والرسوم التوضيحية يضعها في آخر الملف.

من حين إلى آخر كانت تسترعي انتباهي ملفاتٌ بعينها لحالات غريبة، أو غير اعتيادية لأكون أكثر دقة. بعضها مثير للاهتمام طبيًّا لكن أكثرها كان بعيداً تمامًا عن الجانب الطبي، أقرب إلى لغز خارق للطبيعة كان من شأنه إثارة فزعي؛ أحد تلك الملفات كان عن حالة رجل قابله في رحلة قام بها

قبل ستة وأربعين عامًا إلى إنجلترا. تلك الحالة جعلت الشعيرات على مؤخرة رأسي تنتصب.

عثرت على الملف الخاص بتلك القصة على شكل خطابات بين د. هاسيلياس وصديق مقرب له يُدعى "فان لو"، من الولايات المتحدة. على عكس مُعلمي لم يكن "فان لو" طبيبًا بشريًا لكنه كان كيميائيًا وباحثًا في علوم ما وراء الطبيعة؛ لذا جاءت كلماته أقرب للحكايا المثيرة للاهتمام منها إلى السجلات الطبية، أكثر سهولة على القارئ العادي غير الخبير بالمصطلحات الكثيرة في أيٍّ من المجالين، الطب أو الكيمياء.

لم تقع تلك الخطابات بين يدي بالصدفة؛ فبين كل الملفات الغريبة التي وجدتها تلك جاءت كرسالة بريدية رُدت إلى مكتب د. هاسيلياس بعد وفاة الكيميائي "فان لو" عام ١٨١٩. وقتها كان الرجل شهيرًا إلى حدٍّ ما – حتى إنه كتب مسرحية عُرِضَت على الجمهور – إلا أنني لم أتوقع أن تكون له علاقة بالطبيب هاسيلياس، ولم أتوقع أن الرجلين كانا منخرطين في علوم ما وراء الطبيعة إلا بعد أن قرأت الخطابات.

القصة كانت مخيفة، مخيفة حتى إنني بعد وفاة معلّمي وجبَ عليَّ أن أنشرها لعامة الناس ليروا ما



رأيت أنا. تحريت الدقة في ترجمة الخطابات – لأنها كانت بالألمانية والفرنسية أكثر من الإنجليزية – كما أنني تأكدت من تغيير الأسماء وطمس بعض المعالم لحفظ خصوصية أصحابها.

إلا أنني لم أغير في النص الأصلي شيئًا، لم أخُن أيًّا من أصحاب القصة، ما سيأتي هو ما حدث بالظبط قبل ستة وأربعين عامًا.

الفصل الأول

الطبيب والراهب

الراهب السيد جينينجز،كيف يسعني إيجاز وصف شخص الراهب جينينجز في كلمات أو سطور؟!. الرجل بمنتصف العمر، طويل القامة، رفيع، له هالة غريبة من الرهبة المحيطة به، سواء لأنه اعتاد ارتداء الزِّي الرسمي الكنسي بانضباط تام، أو لأن قسمات وجهه كان يشوبها الإجلال؛ لم يكن قاسيًا، لا بل على العكس تمامًا. انطباعي عنه مالَ إلى "رجل مريح"، ليس وسيمًا تمامًا لكن ملامح وجهه حسنة، متناسقة تمامًا، تشوبها الطيبة بل وربما مسحة من الخجل أيضًا.

قابلته للمرة الأولى في أحد الأمسيات ببيت السيدة. ماري هيدوك. حضوره اللطيف وطلته المشرقة الودودة هي ما جذب انتباهي في البداية فورًا. كنا جماعة صغيرة مشاركة في تلك الأمسية، كلنا على معرفة ببعضنا البعض، لم يمانع في المشاركة معنا في الحديث وإن كان يجذبه الإنصات للكلمات أكثر من المشاركة بها، "مستمع جيد ذلك الرجل" هذا ما جال بعقلي وقتها، لم يلتزم الصمت التام طوال الأمسية بالطبع لكن كلماته التي قالها



كانت دائمًا مختصرة، ذكية، وذات معنى. مما عزز انطباعي عن كونه رجلاً ذكيًا وواسع الاطلاع بجانب احترامه وهدوئه. ماري كانت شديدة الإعجاب بالراهب جينينجز، تكن له احترامًا خالصًا لا تشوبه شائبة. كما أنها اعترفت لي أن ثقتها به مطلقة حتى إنها ظلت تستشيره في أمورٍ كثيرة من حياتها، وهو لم يعترض أبدًا على المساعدة.

"الراهب جينينجز بالتأكيد الإنسان الأسعد على وجه الأرض، بعقل مثل هذا وقلب بهذا الصفاء" اعترفت لي إحدى المرات بعد تلك الأمسية؛ لم تتخيل وقتها بالطبع كم كانت عبارتها شديدة البعد عن الحقيقة. وبطبيعة الحال لم أكن أعرف أنا أيضًا في ذلك الوقت حقيقة الراهب الودود قليل الثرثرة.

أخبرتني ماري أيضًا بمزيج من الفضول والأسف بينما نتناول الشاي معًا أن جينينجز كان ثريًا ذا وضع اجتماعي حسن للغاية، مع ستين ألف جنيهٍ في حسابه. لم يصبه المبلغ بالكِبر بل على العكس كان كثير الصدقات، شديد الطيبة مع الفئة الأقل حظًا. وبإرادته اختار الخدمة الكنسية، ومعها العهد بالعزوبية، كان متحمسًا لممارسة مهامه القدسية، شديد الإخلاص لكل ما يترتب



على اختياره من واجباتٍ ومهامٍ. مارس مهنته بعناية في كل مكان، كل مكان ما عدا مقر القساوسة الذي وَجَب عليه القيام بمهامه فيه أكثر من أي موضع آخر على الأرض.

أطلعتني ماري على خبر صحة الرجل التي ما انفكت تتدهور بشدة ما إن تطأ قدمه مقر القساوسة الخاص في وارويكشاير. لا أدري من أين لها أن تعرف تلك المعلومة لكنها كانت واثقة تمام الثقة من صحة مصادرها. كان جينينجز يعاني من ضعفٍ جسديٍّ شديدٍ ما إن يصبح داخل حدود التجمع، تزحف حبيبات العرق البارد من جبهته إلى ظهره ثم تبدأ كفًّا يده بالارتجاف، أحيانًا إن حاول الصلاة تظهر الدمامل بين أصابعه وخلف أذنيه. وربما يسقط فريسة للحمى لأيام.

– ولم تشكّي ولا مرة في أن تلك الأخبار كانت من صنع أحد العقول المريضة؟

سألت ماري وأنا أضع كوبي فضمت شفتيها وهي تجيب:

– ماذا تعني؟



– إن أحدهم يحاول رسم صورة، غريبة عن الراهب لنقل...

لمحت شبح ابتسامة على وجهها سرعان ما تحوَّل لتعبير أقرب إلى البؤس وهي تضع قدحها بدورها وتحرك رأسها نفيًا:

– لا، لا يا عزيزي.. الأقوال حقيقية.

كدت أفتح فمي للإجابة لكن بحركة من أصابعها أسكتتني لتكمل:

– رأيت واحدًا من تلك الحوادث بنفسي.

كان هذا أثناء أداء القداس في الكنيسة الرئيسية التي يخدم فيها جينينجز في كينلز، كنيسة جميلة ورحبة. ورغم بُعدها عن مقر ماري إلا أنها قررت الذهاب بنفسها وحضور قداس كان جينينجز قائمًا عليه بعد ما سمعته عنه. أخبروها أن المشكلة ربما كانت في عقله، أو قلبه؛ لأنه كان يتوقف فجأة عن الكلام وسط القداس قبل أن يستجمع أنفاسه بعد دقائق عديدة ليواصل. حدث هذا ثلاث أو أربع مرات سابقًا.



بنفسٍ متشككة قررت ماري التحقق، لم تتوقع رؤية الكثير.. وبالفعل ظلّ عقلها قلِقًا من أن تشاهد انهيار الراهب بسبب مشكلة في القلب وسط الخدمة، لكنه كان يتحدّث بطلاقة تامة وبثقة، صوته الرخيم كان متبوعًا بتأميناتٍ من الحاضرين والقُدّاس كان بديعًا. لم يحدث شيء غريب إلا بعد مرور نصف الوقت تقريبًا. توقف الراهب فجأة عن الكلام ويداه وسط الهواء. كان يحدق بشيء ما وعيناه متسعتان، حتى إن رؤوسًا عديدة – بما فيهم ماري نفسها – التفتت لترى ما كان الرجل يراه.

بدأ قلبها يخفق بعنفٍ وسرَت همهمات بين الحاضرين، فتح جينينجز فمه ليستكمل القداس لكن الكلمات تعثرت في حلقه وصمت، ظلّ صامتًا فترة ثم هبط فجأة على ركبتيه ويداه مرفوعتان في صلاة أمام الصليب، كانت همهماته مسموعة لكن لا أحد استطاع تفسير ما يقول، استغرق الأمر دقيقتين أو ثلاث بدت لماري دهرًا. قبل أن ينهض الرجل، شاحبًا كالموتى. ويهبط الدرجات مبتعدًا عن المَذبح ومتجهًا إلى الغرفة الداخلية في خطواتٍ متعثرة متفاديًا النظر للجميع.



– لم يكن كبير القساوسة حاضرًا يومها، لكن تم تكليف مساعد بحضور جميع الاجتماعات التالية بصحبة السيد. جينينجز.

قالتها ماري ثم أخبرتني بأن تلك النوبات التي يقع الراهب ضحية لها تنتهي ما إن يغادر إلى لندن، تحديداً إلى منزله الصغير الضيق في بيكاديلي، حيث ترتفع نفسيته عدة درجات وتتحسن صحته فورًا، يصبح أكثر إشراقًا هناك.

بعد اللقاء مع ماري كنت متشككًا، قلِقًا من كون الرجل يعاني متظاهرًا بالصحة وسط المجتمع الذي يعرفه ويألفه، سيؤدي هذا بالطبع إلى اعتلال صحته أكثر في المستقبل لأنه لا يحظى بالرعاية المناسبة. وبالتالي قررت الانتظار ريثما أتحقق بنفسي، بالذات بعد تلك الحادث الغريبة التي أخبرتني ماري بها.

كأستاذ متمرس في الطب، طورت تلك العادة الغريبة على مَر السنوات. لعنه هي تأتي مع الوقت كما يقولون، لدي القدرة على تتبّع وملاحظة كل شيء، كل شيء وأي شيء حتى ولو لم يكن غريبًا كفاية ليسترعي انتباه الأشخاص العاديين. جاء ذلك من كوني مختصًا أكثر في القراءة والبحث في مجالي الطبي عن ممارسة الطب عمليًا؛ الوقت الذي

أملكه للبحث والملاحظة – سواء أنا أو أي أستاذ باحث آخر – أكثر بكثير من الوقت الذي يملكه الطبيب العادي. وبالتالي تأقلم عقلي على تلك الحالة حتى خارج مكتبي، يراقب، ينظر، يبحث، ويسجل.

بسبب تلك الخصلة الغريبة فيي تذكرت فوراً شيئًا صغيراً كنت قد أغفلت عنه سابقًا، لمحة من حركة غريبة لفتت انتباهي في لقائي مع جينينجز، لم تكن شديدة الوضوح لكنها تكررت أكثر من مرة حتى إنها لفتت انتباهي. من تعبيرات وجه المحيطين بي أدركت أنهم هم الآخرون لاحظوها، وإن لم يعلق عليها أحد سواء احتراماً للرجل، أو لأنهم اعتادوا رؤيتها كونهم رفقاء في تلك الأمسيات أكثر مني.

الراهب جينينجز لديه تلك العادة الغريبة في التحديق بعيداً عن وجه المتحدثين في بعض الأحيان، بسرعة وبصمت تتجه نظراته إلى أحد أركان الغرفة، أو إلى طرف السجاد، حيث تسجل حركه عينيه تتبعًا لشيء ما يراه هو دونما الآخرين. في تلك اللحظات يشحب لونه وتبدو قسماتُ وجهه غير مرتاحة تماماً، وكأن شيئًا بشعًا يؤرقه.

تذكرت أنني رأيت تلك الحركة حين كنا نتحدث للمرة الأولى بالمجموعة وأنني فكرت وقتها أنني ربما قلت شيئًا ما أزعج الرجل، بل وكدت أعتذر لولا أنني أدركت أنه لم يكن محور الحديث لحظتها، بل وأن تلك النظرة بعينه لم تكن نظرة استياء بل خوف، والتفتّ، التفت فورًا إلى حيث ينظر ولم أرَ شيئًا غريبًا. لست مؤمنًا بالمادة إيمانًا تامًا ولا بالغيبيات إيمانًا تامًا؛ لذا، جعلت تلك النظرة الشعر بمؤخرة عنقي ينتصب.

لكنني بالطبع لم أسأل وعولت الأمر على كونه ربما مرض عقلي أو مشكلة في عصب العين، سيكون السؤال قلة ذوق من طرفي خاصة وأنني أقابل الرجل للمرة الأولى في حياتي.

لكنني وعلى الرغم من أنني تحاشيت السؤال بقيت أراقب الرجل طوال الساعات المتبقية من السهرة، ليس بدافع القلق لكن الشك والفضول. الراهب المحترم والذي بدا هادئًا، حسن الطباع وعملي. كان يملك ما يخفيه. بالطبع لم أكن قد استمعت حينها لرواية ماري عما حدث أو يحدث معه لكنّ شيئًا ما في شخصه دفعني للشك.

في السنوات الماضية، قبل أن أبدأ سفري، تعمقت بالبحث في جانب آخر تمامًا من الطب، جانب طالما

يتجنبه المجتمع العلمي رغم أنه على ذات القدر من الأهمية – بل وربما أكثر – من الأمراض العضوية، الأدوية والتشريح. الروح، ذلك المصطلح الغامض الغريب الذي لا يتحدث الرجال المحترمون ذوو اللباس الرسمي في بلادنا عنه، وإن تم النقاش فيه فإنه يبدأ وينتهي على استحياء وبصوت لا يعلو الهمس.

في بحثي بعلوم ما وراء الطبيعة، صادفتني العديد من الحالات الطبية الغريبة والإفادات من أقارب بعض المرضى التي دفعني الفضول لتتبعها، بحثًا عن حقيقة ذلك المصطلح الغريب "الروح. أتذكَّر أنه في إحدى المرات جاءني إلى مكتبي رجلٌ في نهاية سنواته الخمسين يطلب مني مصاحبتَه لمنزله، حيث تحتضر زوجته بالسُّل الرئوي. حاولت وقتَها رفض طلبه بذوق وأخبرته أنني تنحيت عن الممارسة العملية للطب منذ زمن، لكن الرجل لم يكن يبحث عن ممارس للطب أو فاحص لزوجته. كان يعلم أنها بالفعل تحتضر، بل وهي في ساعاتها الأخيرة دون شك. ما أراده كان مختلفًا.

– هناك شيء ما غريب يطوف حول جسدها سيدي.



قالها بهمسٍ وهو يلتفت، ضاقت عيناي بالطبع وأنا أجيب وقد قدح الفضول داخلي لوهلة:

– شيء غريب؟!

حرك رأسه إيجابًا، ثم احمرت وجنتاه كعروس شابة وهو يخرج منديلاً ليمسح عرقه. بدا مترددًا في البوح بما يدور في صدره وأنا لم أضغط ولم أطالب. انتظرت حتى همسَ وحده:

– ماريا، تعلم أنها تموت، تعلم أنها لن ترى ضوء النهار ولن تمس أصابع قدمها الأرضَ جوار الفراش حتى مرة أخرى. لدينا طفلان، في العاشرة والخامسة عشر. أخبرتني..

توقف ليزدرد لعابه:

– أخبرتني أنها ترغب في أن يتذكرها الولدان، بعد أن ترحل. ونحن لم نملك يومًا صورة عائلية إلا حين كان الولدان أصغر، أصغر بكثير. ماريا حتى لم تكن حاضرة في تلك الصورة التي أخذناها للولدين مع المربية.

حركت رأسي متفهمًا فتابع فورًا:



– أصرت على إحضار أحدٍ لالتقاط صورة لنا سويًا، حاولت إثناءَها لكنها قالت إن تلك الأمنية الوحيدة لها قبل أن تموت. عجزت عن الرفض وذهبت لإحضار صديق لي، رجل محترم أثق به لالتقاط صورة لنا قبل أن...

توقف عن الكلام من جديد وبدا أن التفوه بالكلمة صعب، عرضت عليه شرب الشاي فوافق فورًا، من التعبيرات التي ارتسمت على وجهه أدركت أنه مرتاح لأن الحديث تم تأجيله ولو للحظات، الشاي جعل اللقاء أكثر ألفة فقمت باستغلال الفرصة لسؤاله:

"سيدي، أنت لم تأتِ إلى هنا ولم تقصدني بصفتي استشاريًا طبيًا، صحيح؟"

حرك راسه نفيًا ثم أومأ:

– أنت جئت لأجل أمر آخر.

– زوج أختي..

قالها فجأة.



– زوج أختي حضر إحدى الندوات التي عقدتها في ألمانيا منذ سنوات، حين جاء للزيارة حدثني صدفة عن ذلك اللقاء وعن الندوة وأخبرني أنه التقى رجلاً لا يخشى أن ينظر إلى ما هو أبعد من المادة، تلك كانت كلماته تحديداً.. أجل. الرجل الذي لا يخشى النظر إلى ما أبعد من المادة.

توقف عن الكلام وبقيت ناظراً له حتى قال أخيراً:

– الصورة التي التقطناها للعائلة، ظهر بها شيء غريب د. هاسيلياس.

* * *

تتبعتني عينا الراهب جينينجز طوال الحفل، متحاشياً أن يبدو عليه مراقبتي وكاد لينجح طبعاً لولا أنني كنت أراقبه بدوري. التفت ومالت رأسه بفضولٍ أكثر من مرة حين بدأت في الحديث مع مجموعة من الأصدقاء المشتركين لماري أو لرجال آخرين جمعني بهم أكثر من لقاء في مناسبة سابقة، وبدا أنه ينتظر مني الخوض في حديث معين. لكنه كان يعود ليدير وجهه فأعلم أن ما كنا نتحدث فيه ليس ما كان يبحث عنه.

كرجلين باحثين، قارئين نهمين للعديد من الكتب، ومسافرين لأكثر من بلد لم يكن من الصعب أن تُخلق بيننا مواضيع حديث مشتركة بالطبع، بل كان هذا طبيعيّا تماماً؛ لذا كونه كان منتظراً لحديث بعينه – وبسهولة أدركت أنه ليس بخصوص الطب وإلا كان جاء وسألني مباشرة – أخبرني حدسي أن الراهب ينتظر أن أبدأ في الخوض في حديثٍ عن أمور ما وراء الطبيعة. المفاهيم الروحية كما سيسميها كونه راهباً كنسيّا.

لم تكن هناك أي فرصة بالطبع لأبدأ مثل هذا الحديث في الحفل ذلك المساء، كوني عرفت أن أولئك الرجال حولي من الفئة التي لا يدور الحديث في الأمور الروحية فيما بينهم، بل وإن فتح أي رجل مهما كانت مكانته الموضوع سيعتبر المجتمع بأكمله ذاك الشخص منحطاً، لا ذوقي.

كان هذا رياء واضحاً، أغلب أولئك الرجال بل وربما كلهم، يصطحبون زوجاتهم إلى الكنيسة يوم الأحاد، يتحدثون في الشئون الدينية والروحية معهن في بيوتهم بل وربما يشاركون سراً في أحد تلك النوادي القائمة على جلسات الاستحضار

التي تقودها وسيطة روحية أو غجرية قادمة للمدينة في مناسبات مختلفة.

لكن تلك الأشياء لا تُقَال علنًا، الراهب كان يعرف أن تلك الأشياء لا تقال عَلنًا لكنه ما انفك ينتظر. قرب انتهاء الأمسية لمحته مع ماري، يتحدثان بخفوتٍ في أحد جوانب الحجرة ولم أكن في حاجة لقرون استشعار لأعرف أنني كنت محور هذا الحديث، لأن جينينجز جاء بعدها بقليل ليفتح حديثًا معي حاول قدر الإمكان صبغه بصبغ العشوائية.

تحدثنا عن رحلاتنا وعن المجتمعات المشتركة التي ذهبنا إليها، أخبرني القليل عن كنيسته المحلية وعن بعض الرجال هنا ثم انتقل حديثنا إلى الطب ومنه إلى الكتب، كان هذا حين أخبرني باحترام:

"لا أخفيك سرًا د. هاسيلياس، حين ذهبت إلى ألمانيا منذ اثنتي عشرة سنة قرأت الكثير من أعمالك الأدبية هناك. باللغة الألمانية الأصلية لها. أحد تلك الكتب كان عن دراستك وتجاربك في علوم ما وراء الطبيعة. الكتاب كان رائعًا بالفعل.

شكرته بقوة وبصدق فتابع:

– هل تمت ترجمة الكتاب إلى الإنجليزية سيدي؟

– لا لا أظن، وإلا كانوا راسلوني لطلب إذني.

– هذا أمرٌ مؤسفٌ، مؤسف للغاية. طلبت من أحد المسئولين في دار طباعة ونشر هنا منذ حوالي شهرين ترجمته لكنه عاد إليّ آسفًا ليخبرني أنه عجز عن إيجاد طبعات جديدة من الكتاب ولم يتمكن من وضع يدِه ولو على نسخة واحدة.

أومأت باحترام:

– سيد جينينجز للأسف توقفت عن طباعة الكتاب فعلًا، لكنني سعيدٌ للغاية؛ لأن شخص محترم وقدير مثلك قد اهتم بالكتاب، هذا شرف عظيم لي لو تعلم! بل تذكرت أيضًا الكتاب واسمي بعد مرور اثنتي عشرة سنة على قراءتك له للمرة الأولى وطلبت ترجمته منذ شهور قليلة. اثنتا عشرة سنة مدة طويلة جدًا لتتذكر كتابًا بعينه.

لم أقصد أن أكون متحذلقًا لكنني كنت فضوليًا فعلًا لمعرفة ما يدور بخلد جينينجز، للأسف جاءت النتيجة عكس ما توقعت وانغلقت شفتاه على الكلمات التي أراد قولها، بل عقد يديه أمامه وهو يشيح بوجهه بنوع من الخجل والتوتر. أدركت أنني وضعته في موقف لم يكن يرغب أن يوضع فيه وقد أصبحت الأمور غريبة الآن.



تداركت الموقف بسرعة لأخرجه من تلك الحالة:

– أتعرف سيدي؟ رغم أنني أشعر بالسعادة للغاية لأنك تذكرت الكتاب إلا أنه يحزنني أنك عجزت عن إيجاده. أعرف ما تعاني منه، أحيانًا أقرأ أنا أيضًا عملاً أدبيّا جديداً لأجدني بسبب كلمة أو جملة أتذكر عملاً قديمًا للغاية قرأته منذ سنوات، يأخذني هذا في بحث محموم عن العمل القديم لكنني أقابل بخيبات أمل متتالية للأسف.

تحولت قسمات وجهه للارتياح فورًا وهز رأسه مجيبًا:

– أجل، للأسف هذا حقيقي، مشكلة نعاني كلنا منها خاصة أننا نقرأ بنهم.

– أجل، أجل. لكن تعلم ماذا. أعتقد أنك محظوظ، أكثر حظّا مني، لأنني أتذكر أنه قد بقي معي نسخة أو نسختان من الكتاب في منزلي هنا، كنت قد احتفظت بهم لوقت لاحق، بإمكاني إيجاد إحدى تلك النسخ لك إن كنت ما تزال راغبًا فيه.

أشرق وجهه وهو يقول بحماسٍ:

– حقًا ؟ د. هاسيلياس لا فكرة لديك عما سيعنيه لي هذا!. كدت أفقد الأمل في إيجاد إحدى تلك

النسخ للأسف.

– أنا سعيد فعلًا، سيكون هذا أقل ما يمكنني تقديمه لحضرتك، يكفي أنك تذكرت الكتاب لكل هذه المدة.

– هذا شرف لي يا دكتور، شرف لي فعلًا. أرجو أنني لا أتثاقل عليك.

– لا لا بالطبع، الشرف لي أنا.

وبهذا انتهت محادثتنا وتبادلنا عناوين إقامتنا مع وعدٍ منه بالزيارة في أقرب فرصة ليحصل على الكتاب.



الفصل الثاني

ليدي ماري، والأرواح العالقة

"أنا معجب فعلًا بكاهنك ذاك، ليدي ماري".

قلتها وانا احرك نظري إلى خارج حدود النافذة، كانت الشوارع مزدحمة ذاك النهار، الكل يسير إلى وجهة لا يعلمها إلا هم، الكل يسير لكن لا أحد ينظر إلى الآخر، قبعاتهم لا غبار عليها ومشدودة فوق رؤوسهم، بزاتهم مكوية، الصبية يحملون الأكياس وفرش تنظيف الأحذية "بامَل"، فساتين النساء شديدة الدقة، شديدة الترتيب. لكنها باهتة، ربما أكثر بهتًا من السخام على وجه الأطفال المتسولين في الشارع.

شيء ما بلندن غائم دائمًا، ربما دخان المصانع أو ربما ضباب السماء، لا أعرف تحديداً لكنَّ شيئًا ما رماديّا كان يبهت دائمًا فوق كل لونٍ وكل تعبير وجهٍ. لم آتِ إلى هنا ولا مرة من قبل إلا وبدرت هذه الملاحظة إلى ذهني.

– ليس لديك فكرة د. هاسيلياس.



قالتها ماري مشدودة الصدر وهي تحدق في بينما أحدق في الخارج:

– الرجل طيب حقًا، شديد التحمل. ساعدني كثيرًا قبل حتى أن أطلب منه، هناك شيء بشأنه، لا أدري يا طبيبي العزيز لكن الرجل يمتص كلَّ ألم وتعب ومشكلة إلى مكان ما داخله ليخفيها من الجو حوله. ثم يبتسم، رغم كل تلك المشاكل لكنه ما ينفَك يبتسم، دائمًا.

أومأت دون النظر لها وأنا أعقب:

– قرأ كثيرًا، سافر أكثر، وأكثر من كل شيء، الرجل عانى كثيرًا. رأى ما لم يرَه بشر، أوه لم أتوقف عن التفكير في أنه سيكون خيرَ الصحبة لو سافرنا معًا.

– ما لم يرَه بشرٌ؟

أصبح صوت الليدي ماري أكثر قلقًا فحولت نظري إليها وأنا أرسم ابتسامة مطمئنة على محياي:

– لا شيء مخيف عزيزتي، لا داعي للقلق. لكن عليّ القول بأنني سعيدٌ للغاية لسماع مثل هذا الرأي الطيب منك في أمره. لا أعتقد أنني شهدت

مديحك لشخص ما قبلًا إذا جئنا للحق ليدي ماري. كما قلت لكِ هذا دافع أكبر يجعلني راغب في معاملته كرفيق سفر، ربما أعرض عليه الأمر لاحقًا.

– هذا أمرٌ سعيدٌ للغاية عزيزي د. هاسيلياس.

– بوسعي أيضًا – في المقابل– إخبارك بشيء أو اثنين عن الرجل.

ابتسمت وأنا أضع قدحي أخيرًا مراقبًا تعبيرات الدهشة والفضول التي توجت وجه ماري، حاولت كبحها لكنَّ وجنتيها اصطبغتا بلون أحمر مشع وتململت في جلستها قليلًا، استمتعت بالفضول لثوانٍ قبل أن تصيح متأففة:

– هيَّا هات ما عندك د. هاسيلياس لا تبقيني هكذا!

ضحكت وأنا أضع الساق فوق الأخرى لأحرك رأسي:

– حسنًا لنبدأ، جينينجز ليس متزوجًا.

أومأت ماري:

– هذا بديهي، بديهي تمامًا. تابع أرجوك.



– في فترة ما من حياته بدأ في كتابة عمله الأدبي الخاص، لا يسعني تفسير موضوع كتابه بالضبط لكن أغلب الظن أنه كان متعلقًا باللاهوت. إلا أنه لم يواصل كتابته، ربما عام أو اثنين ثم نبذ الفكرة تمامًا ولم يقم بمحاولة استكماله أو نشره حتى..

ارتفع حاجبا ماري قليلًا وهي ترد بصوتٍ خافتٍ:

– حسنًا، أنت محق. كان يكتب لفترة كبيرة من حياته، لا أعلم ما كان موضوع كتابه بصراحة لم أحاول الخوض معه في حديث مطوَّل عنه لأنني أدركت أن الموضوع لن يثير اهتمامي بأي حال من طريقة كلامه عنه، لكنه توقف فعلًا ولم يحاول متابعة كتابته."

كانت تعبيراتُ وجه ماري الآخذة في التبدُّل مثيرة للاهتمام، أعتقد أنني لو حاولت يومًا تأليف كتابٍ عن طبيعة البشر ولغة الجسد سأخوض في بحرٍ كاملٍ من التفاصيل والتشعبات، بحر كامل من تلك الحركات الصغيرة للغاية التي قد يثير جنوني ملاحظتها في كل مرةٍ بالجالس أمامي. من حسن الحظ أنني لم أحاول في عمري دراسة الأمر.

– رغم أن السيد. جينينجز فضّل تناول القهوة في لقاء الليلة الماضية، إلا أنها ليست عادته وليس

مشروبه المفضل. الراهب الطيب يفضّل الشاي، بل ويمكنني الإقرار بأريحية أنه يعشق تناوُلَه بإسراف.

– يا إلهي د. هاسيلياس!

الآن بدت ماري غير مرتاحة تمامًا لمسير المحادثة بيننا.. يمكنني أيضًا تخمين أنها كانت خائفة. لست شخصًا ساديًّا ولا أشعر بالسعادة أو الامتنان لكون حديثي يخيفها لكن كان عليَّ معرفة إن كان ما استنتجته البارحة وما أفكر فيه الآن حقيقيًّا؛ لذا واصلت:

– اعتاد السيد جينينجز شرب الشاي الأخضر بالذات أليس كذلك ماري؟، دونًا عن بقية الأنواع كلها كان الشاي الأخضر مفضلاً بالنسبة له، تناوله بكميات ضخمة أيضًا في مرحلة ما.

– حسنًا د. هاسيلياس هذا غريب فعلًا، هل تعرف السيد جينينجز من قبل هذه الليلة؟

– لا..

– إذًا عليَّ القول بأن استنتاجك غريب فعلًا!

– هل أنا مخطئ؟



– حسنًا، لا.. على النقيض تمامًا طبيبي العزيز وهذا هو الغريب في الأمر!

توقفت ماري عن الكلام هنيهة وهي تحدق في الشارع خارج النافذة، انعكس ضوء الشمس على جانب وجهها بمزيج من شحوب البرتقالي وبرودة الأزرق. رفعت رأسي إلى السماء خارج الزجاج بدوري لأرى الأشعة القليلة النافذة باستحياء من بين خيوط الضباب والسُّحب والدخان العائم فوق لندن. ثم عدت لأحدق بماري التي التفّت أصابعها حول أحد خيوط تنورة فستانها تلويها وتعقدها بتوتر.

– كان الشاي الأخضر موضع نقاشٍ كبيرٍ بيني وبين السيد.. جينينجز لفترة لا بأس بها، اعتاد تناول كميات مهولة منه وقد وصل الأمر بيننا إلى حد العراك أحيانًا. جربت ذلك المشروب لكنني لم أستسغ طعمه أبدًا ولم أعرف لِم فضّله الراهب الطيب عن أي مشروبٍ آخر. اعتدت شراءه فقط من أجل أيام ضيافته.

– لكنه توقف عن تناوله تمامًا..

– نعم، لم يعد يفضل شربه. زهده كما قال.

حولت ماري نظرها من الخارج إليَّ مرة أخرى وهي تسأل بهدوء:

– هذه المعلومة – إن سمحت لي طبعًا – شديدة الدقة لتكون مجرد تخمين د. هاسيلياس، كيف بحق اللّه؟!

رفعت أصابعي مبتسمًا ومقاطعًا:

– سأخبرك بكل شيء ماري العزيزة، لكن تحمليني في تخمين واحد أخير، هلا فعلت؟

أومأت بعد تردُّد فتابعت:

– والد ووالدة السيد جينينجز، هل كنتِ على معرفةٍ بأيٍّ منهما؟

– آه بالطبع، كلاهما. والده المسكين توفي منذ عشر سنوات تقريبًا، كلاهما كان يقيم قُربَ من لندن، تحديداً في "داولبريدج". كنا نعرفهما جيداً.

– حسنًا هذا هو سؤال إذًا وأرجو ألا تقلقي منه عزيزتي ماري، أنا فقط في حاجة إلى أن أعلم. هل أخبرَك السيد جينينجز قبلًا أن أحد والديه، على الأرجح الأب وليست الأم، قد سبق ورأى شبحًا؟



شحبَ وجهها كثيراً هذه المرة حتى قلقت من كونها على وشك الإغماء وكدت أتحرك من كرسيَّ لكنها أشارت لي:

– أنا بخير، أنا بخير.

– ماري..

– أنا بخير د. هاسيلياس لا تقلق، كل ما في الأمر أنني تذكرت شيئًا ما.

لم أرغب في الضغط عليها أكثر لكنها أطلقت تنهيدة طويلة وهي تجيب:

– في الواقع أنت محق هذه المرة أيضًا، كان والده رجلاً غريبًا. طيب المعشر لكنه غريب، وكان صديقًا قريبًا لوالدي لفترة طويلة قبل وفاته، كنت صغيرة جدًّا حين بدأ يزور والدي باستمرار ويجالسه بالساعات متحدثًا عن أحلامه، اعتقدت في البداية أن ما يقوله الكبار مثير للاهتمام لكن سرعان ما فقدت اهتمامي وتوقفت عن استراق السمع لهما، كما أنه كان يخيفني، يخيفني كثيراً.

– كيف؟



– كان يتحدث عن أشياء تتحدث في عقله، أخبر أبي أحد المرات أنه رأى شبحًا وتحدث معه. أخبره بقصة لا زلت أتذكر تفاصيلها حتى يومنا هذا لأنها كانت ترعبني، تلك كانت المرة الوحيدة اللي اكتشف أبي أنني أسترق السمع لهما، ورغم هذا لم يعاقبني لأنني كنت منهارة حقًّا بعد سماع تلك القصة. حاول مواساتي لأسابيع وأخبرني أنها مجرد قصة رواها له الرجل الطيب، مجرد حلم. لكنَّ شيئًا ما في طريقة كلامه أخبرتني أنه يكذب.شيء ما في مظهر الرجل الكبير الذي بدأ يتبدل بعد ذلك الحادث أخبرني أن القصة التي سمعتها حقيقية.

توقفت عن الكلام لبرهة ثم عاودت:

– د. هاسيلياس، الرجل لم يعد أبدًا كما كان بعدها، كان يزورنا باستمرار وقت الغروب. أتذكر أنه جاء وشاهدني بينما أرسم من قبل وفي ضوء الشمس الزائل رأيت وجهَهُ عن قرب للمرة الأولى منذ فترة كبيرة، لم يعد سمينًا، لم يعد بهيَّ الطلعة أو ضخمًا. كان وجهه كالشمع، بهالات سوداء ضخمة أسفل عينيه. شعره تخلله كثيرٌ من البياض وكثير من الفجوات. أصبح هزيلًا ومرتعدًا وصامتًا. كان يثير رعبي كطفلة.

أومأت لها بصمتٍ، توقفت عن الكلام لكني لم أعقب فورًا فسألت بثبات:

– كيف عرفت كل هذا د. هاسيلياس؟، هل، هل.. سيدي عذرًا لكن هل لجأت إلى التنجيم؟

لم أستطع في تلك اللحظة إلا أن أضحك، كانت ماري العزيزة سيدة كبيرة ومحترمة لكن أحيانًا شعرت بأنها تتحول إلى طفلة، في تلك الأوقات التي لا تعرف فيها ما يدور حولها أو يتعسر عليها الفهم تتحول إلى طفلة تائهة وخائفة.

تحركت من مكاني بهدوءٍ، منزلًا ساقي إلى الأرض وأنا أقف لأعدل من وضع ثيابي وأنا أعلن:

– الآن وقد انتهينا من لعبتنا الصغيرة عن السحر والتخمين، أظن أنَّ عليَّ مفارقتك لليوم.

– لا، انتظر.

نهضت بدورها بسرعة لتنحل عقدة الخيط من حول أصابعها، نظرت لي بفضول وهي تسأل:

– أخبرني كيف تمكنت من معرفة كل هذا، أرجوك د. هاسيلياس.



ضحكت مرة أخرى:

– عن طريق الأفلاك بالطبع، هكذا يفعلها المنجمون أليس كذلك؟

* * *

صباح اليوم التالي مباشرة أرسلت الكتاب إلى السيد. جينينجز، مع خطابٍ صغيرٍ أرجو فيه له حسن الطالع وتمنياتي الخالصة أن يعود الكتاب عليه بالفائدة التي يرجوها. بالليلة ذاتها بعد إرسالي الكتاب وحين عدت إلى المنزل قال لي المسئول عن رعاية شئون المكان إن السيد المحترم قد جاء لزيارتي، وحين لم يجدني تركَ بطاقته وبها عنوان ورقم هاتف وسأل عن الموعد المتوقع لوصولي ومتى تحديداً سيكون قادرًا على إيجادي بالمكان.

تلقيت رسالته برحابة صدر وقد تأكدَتْ شكوكي بأن رغبته في اقتناء الكتاب لم تكن لمجرد الاطلاع، بالطبع حديثي مع ماري قد ساعَد على تعزيز تلك الشكوك أكثر منذ البارحة لكن الزيارة بالذات أكدت على أن الأمر أكبر مما توقعت في البداية.



وأن السيد جينينجز يخفي سرًا خلف قناع الهدوء الذي يحاول ارتداءه اجتماعيًا. صعدت إلى غرفتي تلك الليلة وبقيت هناك، متأملًا أسطح البيوت من نافذتي. الآن في المساء، لم يعد بالإمكان التفرقة بين الدخان والسخام وبين ستار الليل نفسه، وأضحى الجميع بالشوارع متشابهين، متشحين بالسواد والصمت وسائرين بسرعة مِن وإلى مداخل البيوت الحجرية. هناك، في الأفق. لو ظهرت الآن حالًا كل أشكال الأطياف الهائمة فوق أسطح البيوت ورؤوس السائرين لما لاحظها أحد، ربما لا أحدَ سوى أولئك أمثال السيد جينينجز.

قررتُ ردّ زيارته في الصباح التالي، لا أدري إن كان سيفاتحني بما يعتمل في صدره مباشرةً أو إن كان سيلجأ إليّ بصورة رسمية كاستشارة، لكنني قررت ردّ الزيارة على كل حالٍ، لن أتركه ينتظر تقديرًا له ولمبادرته، وإرضاء لفضولي.

لكن الآن، وبينما أنا هنا داخل غرفتي الباردة ذات المنضدة الباهتة أسفل النافذة المُطِلّة على الظلام، تحول تفكيري من كيفية دفع الرجل المحترم للاعتراف بما يعانيه – حتى ولو لم يطلب الاستشارة – إلى تلك الذكرى البعيدة، تلك التي



كانت أحد أوائل تجاربي مع ذاك العالم غير الملموس..

والذي عجزت من يومها عن تركِه خلفي والمضي قدمًا دون أن أستمر في العودة إليه مرارًا وتكرارًا.

الفصل الثالث

كتب قديمة

كانت جميلة، جميلة للغاية في يومٍ ما، زمن آخر. لكنها لم تعد كذلك الآن.

على فراش بحوامل خشبية ثقيلة استلقت السيدة المحتضرة، أو لأكون أكثر دقة، غاص جسدها المسكين داخل ثوبها الأزرق الحريري المُحلّى بدانتيل أبيض رقيق حول الرقبة والصدر. أصابعها الطويلة ووجهها الذي كان يومًا ما أبيض بالتأكيد مع وجنتين ورديتين صاروا الآن بلون بتلات زهرة تيوليب فوق شاهد قبر؛ زحف الرمادي أسفل عينيها وانكمش الجلد وتعرج فوق عظامها، كانت ماريا تموت.

جواري وقف زوجها وجواره وقف أخوه، ثلاثة رجال في غرفة واحدة يراقبون امرأة تحتضر، اللحظة المنتظرة كانت تقترب أكثر بكل ثانيةٍ تمر.

حانت مني التفاتة سريعة إلى الزوج المتسمر جواري ويداه معقودتان أمامه، شفتاه تحركتا في صمتٍ بهمساتٍ خمنت أنها صلاة لكنه لم يلتفت إليّ ولم

ينظر نحوي منذ تلك اللحظة التي أراني فيها الصورة.

حظت العائلة بولدين شِبه متطابقين رغم أن خمس سنوات وقعت كفارقٍ بين الصبي ذي العشر سنوات وأخيه الأكبر، وكلا الولدين كانا شديدي الشبه بالأم، أو بالنسخة التي كانت عليها الأم منذ سنوات مضت. بالصورة بدا من الواضح عدم الراحة على أيٍّ من الوجوه، لا الأب، ولا الأولاد. ما عدا الزوجة؛ ماريا.

في الواقع، لم يكن وجهُ ماريا واضحًا من الأساس. شيء ما أشبه بغيمة، خيط خفيف للغاية من الضباب الأبيض كان يحجب ملامحها، مشكلة في التصوير؟، حسنًا هذا ما خُيِّلَ لي قبل أن ألمح الشكل الذي كان عليه الضباب المجتمع فوق رأسها. يدٌ، يدٌ بيضاء بأصابع نحيلة شديدة الطول كانت تضغط فوق رأس ماريا الضعيف وكأنها نفدت منه تواً، مستعدة للهرب، مستعدة للانفلات بعيداً.

– ليست تلك الصورة الوحيدة.

قال زوجها حين رأى النظرة على وجهي، ثم أراني صورة أخرى، هذه المرة كان وجه ماريا باديًا وقد انزاح



الضباب إلى اليمين قليلًا، لم أرَ اليد في تلك الصورة لكنَّا شيئًا آخر بدا واضحًا على الجانب الأيسر، سيلوليت كامل لشيء أشبه بالبشر، أكثر طولًا ونحولًا لكن المشهد العام بدا كبشرٍ. كان واضحًا بما لا يحتمل الشك في صحة الصورة أو كونها مجرد مشكلة في آلة التصوير.

حين سألت الزوج إن كان قد أخذ أيَّ صورةٍ أخرى، تردد قليلًا ثم أخبرني أنهم حاولوا تصويرها بينما هي نائمة، وهذه الصورة هي ما آثار رعبي.

لم يكن أيٌّ من أفراد الأسرة حاضرًا في تلك الصورة، لم يكن هناك أحدٌ في الغرفة سوى الزوج الذي أصرَّ على أن يتم تصويره مع زوجته النائمة، والمصور على الجهة الأخرى من الكاميرا – الذي لا أعرف كيف وافق على المجيء اليوم بعد أن رأى ما رآه تلك الليلة – وجوار الزوج كان جسد ماريا النحيل مستلقيًا في الفراش، فوق رأسها تجمع الضباب الأبيض مسحوبًا إلى الأعلى، تجلَّى بوضوح تمامًا هذه المرة، الوجه، الذراعان، الجسد النحيل المماثل للجسد النائم، ذاك الخيط من الضباب الأبيض كان يصرخ. صرخة صامتة مريعة كدت أسمعها وأنا أنظر إلى الصورة بين أصابعي المرتجفة.



لكنَّ الضباب الصارخ لم يكن مشكلتي الوحيدة، أثار دهشتي أجل لكن ما أثار فزعي التام كان وجهُ ماريا نفسه، الوجه الحقيقي للمرأة المحتضرة على الفراش، والذي بدا مشوّهًا ومسحوبًا بعينين شديدتي الاتساع وأنف أفطس يكاد يحتل الوجه كله، شفتاها كانتا مزمومتين وشديدتي الانتفاخ على عكس وجه ماري الحقيقي، إن كان بإمكاني وصف الصورة التي رأيت فسأقول إن الوجه كان شديدَ الشبه بوجه ماريا، لو كانت ماريا قرداً.

* * *

على باب منزل السيد جينينجز أخبرني الخادم باحترام أن السيد في مقابلة الآن مع كاهن خاص قادم من الإبرشية التابعة للقرية التي كان جينينجز يقدّم خدماته في كنيستها، تلك التي أخبرَتْني ماري عن الحادث الذي وقع فيها. لم أرغب في الذهاب بعد أن قطعت كل تلك المسافة لكنني لم ألِحّ، رغبت في ترك الكرة بملعب السيد جينينجز فأعلنت بهدوء أن ربما عليّ الزيارة إذًا في وقتٍ آخر.

استوقفني الخادم قبل أن أذهب وهو يتفحصني بعناية لم أرَ خادمًا يقيّم بها زائري سيده قبلًا ثم قال:



– سيدي، لن أفترض أنك السيد الطبيب هاسيلياس أليس كذلك؟

– هو بعينه.

قلتها وأنا أومئ مؤكدًا، فانتصب الرجل وهو يفتح الباب مشيرًا لي بالدخول ومبتسمًا قليلًا:

– في هذه الحالة سيدي، أظن أنه عليّ إطلاع السيد جينينجز بخبر قدومك؛ فقد كان شديد الشوق للقائك.

دعاني للدخول ثم تركني واختفى دقائق قبل أن يعود ليعلن أنه زفّ خبرَ وصولي إلى السيد جينينجز الذي أكد أنه راغبٌ في أن أنتظره في مكتبه بدلًا من الرحيل، أخبرني الخادم بأن السيد أكد أن اللقاء لن يستغرق سوى القليل من الدقائق الإضافية قبل أن يتمكن من الانضمام إليّ، لن يتأخر.

قادني الرجل إلى غرفة المكتب – التي خمنت أنها في الأصل كانت مرسمًا من نوعٍ ما – ثم اكتشفت أنها شيء أقرب إلى المكتبة منها إلى مجرد غرفة مكتب طبيعية. على الباب ترددت في الدخول للحظات. الغرفة أمامي كانت شديدة الاتساع، شديدة الطول، ممتلئة بالكتب من الأرض إلى



السقف. ما بدا من الجدران كان بلون قشرة البندق مع نوافذ دائرة صغيرة للغاية مغمورة وسط الخشب، أحصيت منها خمس نوافذ عكست الضوء الشحيح القادم من الخارج إلى داخل الحجرة. حين خطَوْتُ إلى الداخل ببطء غاصت قدمي في سجاد تركي أحمر اللون كالدم، لم تُحدِث خطواتي أيَّ صوت، في الواقع، لم يحدث أي شيء داخل المنزل أي صوت. كان المكان بالكامل شديدَ الصمت. مكتب صامت في منزل صامت لرجل صامت متشح بالسواد.

على يميني رأيت طاولة واحدة مع مصباح، أعلاها احتلت نافذةٌ مثلثة كنوافذ الكنائس جزءاً كبيراً من الجدار، وعلى جانبيها استطعت رؤية ستائر سوداء ثقيلة، في الواقع حين دققت النظر أكثر رأيت أن كل نافذة بادية داخل الغرفة استقرت جوارها نفسُ الستائر السوداء. هنا وهناك بين النوافذ وصفوف الكتب استقرت أكثر من مرآة، دائرية صغيرة بسطح مصقول لامع، إحداهن كانت تقع مباشرة فوق الطاولة وأسفل النوافذ المثلثة. الغرفة كانت مخيفة، لم أتوقع هذا حين أتيت إلى هنا.



كانت الغرفة –على الرغم من أناقتها– مخيفة وقاتمة كقبر.

تركني الخادم ورحل فتجولت قليلًا بين الكتب، تنوعت الكتب أمامي بين تلك التي تحمل غلافًا جلديًا سميك وأخرى بغلاف ورقي خفيف وصغيرة نوعًا، الأغلب حمل حروفًا مذهبة وعناوين تنوعت بين الدين، الفلسفة، العلوم الباطنية، التاريخ.. إلخ.

تقدمت والتقطت من أحد تلك المجلدات، لا من بين الصفوف نفسها لكن من تلك الكتب المتروكة على الأرض وظهرها إلى الأعلى، كان واحداً من مجموعة أعرفها قبلًا، لإيمانويل سفيدنبوري، نظرت إلى باقي الكتب على الأرض لأتأكد وأكتشفت بالفعل أن تلك الكتب الملقاة كانت المجموعة الكاملة لإيمانويل، الثماني مجلدات بعنوان "أسرار السماء" التي نشرها سفيدنبوري لتفسير سفر التكوين وسفر الخروج تاريخيًا وروحيًا. كانت الكتب أصلية، لم يحذف منها ولا سطر، عرفت هذا من رائحة الورق ومن الغلاف كبدي اللون والأحرف اللاتينية المطعم بها.

داخل الكتاب وضع جينينجز العديد والعديد من الهوامش والعلامات لتحديد الصفحات، حملت الكتب ورصصتها فوق بعضها البعض على



الطاولة، ومرة أخرى لاحظت أن قدمي لا تحمل أيَّ صوتٍ حين أخطو على الأرض هنا، جعلني هذا أجفل أكثر من مرة شاعر بأنني أطفو فوق السجاد.

لكنني تجاهلت الشعور المقبض وتجاهلت ما حولي وفتحت أول تلك الكتب باحثًا عن العلامات التي وضعها جينينجز داخل المجلد، الهوامش التي كتبها على أطراف الصفحات كانت بحبر أسود وبخط صغير للغاية ومرتجف.

ترجمت بعض من تلك الهوامش كالتالي :

"حين يعلو الوعي الروحي للإنسان تُفتَح عينه على ما لم يرَ قبلًا، لكُلٍّ منا عين بروحه إن استيقظت من غفوتها ستكون قادرة على رؤية الفاصل بين عالمنا والجانب الآخر، تلك اللحظات الوجيزة التي يعبر فيها ما بالبرزح إلى هنا، إلى عالمنا المادي."

" الأجساد المادية لا تعي كل ما تراه حولها، العقل يغفل الكثير كي لا يجن أحيانًا، رأيت هذا. رأيته الآن بوضوحٍ بعد أن مُنِحت البصيرة حتى إنني صرت أرى الجانب الآخر بوضوح أكبر من قدرتي على رؤية العالم المادي، لم يعد لأيٍّ مما حولي مذاق، لون، أو مصداقية بعد أن أدركت أن هناك المزيد. هناك



بالفعل المزيد. بصيرة كاملة داخل بصرنا المادي المحدود..”

“ لكل انسان رفيقان على الأقل، قرينان، لا يسع الجميع رؤيتهم لكنهم هنا، دائمًا وأبدًا. كلاهما شر خالص. “

“الجن حسن الكلام، لبق وقادر على الخداع بسهولة، لكنه لا يتكلم كثيرًا، أولئك الذين يحملون شرًا لا يتحدثون بطلاقة لكنهم يفضلون الوسوسة. كلماتهم ووعودهم تأتي كصوت في داخلك. وذلك الصوت إن عجزت عن التفرقة بينه وبين صوت عقلك الخاص قد يدفعك للجنون. “

“الشيطان أو الجن القرين آتٍ من الجحيم، مكانه هو الجحيم وإلى الجحيم سيعود، لكنه حين يصير مصاحبًا للإنس لا يعود متشكلًا على تلك الهيئة التي كان بها في جهنم، ولا يعود مقيمًا هناك بل يصير مكانه بعد واقع بين الجنة والنار، ما هو أشبه ببرزخ الروح لكنه خاص بهم هم، هناك يستطيعون مصاحبة التشكل والتخلص مؤقتًا من العذاب المفروض عليهم بالنار؛ لذا يبذلون ما بوسعهم للبقاء مصاحبين للبشر، للوسوسة، كي يتمكنوا من الاستمتاع قدر ما يستطيعون قبل عودتهم إلى حيث ينتمون..”



"الجن لا يملك شكلاً ماديًّا، خاصة الشر منهم. لكنه قادرٌ على التشكل حسب الظرف والمكان.."

"يعي قرين الشر أنه مُكلَّفٌ بمصاحبة الإنسان، ويعي أن عمله هو الوسوسة له. لكنه إن امتلك القدرة على الطيران بعيداً عن الإنسان والتشكل في صورة مادية سيبذل ما بوسعه لتدمير صاحبه، لو امتلك القدرة على تلبُّس جسد بشري سيسعى كل السعي لتعذيب البشر، هم يكنون كراهية لا حدَّ لها لنا.."

"أدركوا أنني رجل دين، أولئك الذين هم معي وأولئك الذين للأسف صرت قادرًا على رؤيتهم. أدركوا أنني رجل دين وصاروا عازمين كل العزم على تدميري، لا جسداً فقط بل جسداً وروحًا، خاصة الروح. أدركت متأخرًا ما يعنيه أن تملك البصيرة، أن تصبح على تواصل مع ذلك الجانب من الوجود وأن تصبح قادرًا على رؤية ما لا يُفترَض بك رؤيته بطبيعة الحال."

"الرب يحميني، يحفظ روحي، هذا هو سلاحي الوحيد الآن ضد ما أراه. أولئك القادمين من الجحيم لا يعنيهم الجسد ولا يهمهم في شيءٍ، الروح أهم وتدميرها يعني فوزهم. أنا أعاني، أعاني طول الوقت لكن الرب معي، سلاحي وعكازي الذي أستند

عليه في هذه الأيام المظلمة.. لا أدري كيف كنت لأنجو لو لم أكن رجل دين."

"غاية ساكني جهنم هي تدميرنا، أيّا كانت الوعود، أيّا كانت العروض."

عجزت عن إخفاء دهشتي لما رأيت، قرأت تلك الكتب سابقًا بالطبع ولم تكن المعلومات بها حديثة عليّ لكنّ اهتمام السيد جينينجز المبالغ فيه بذلك الجزء بالذات من أعمال إيمانويل أثار قلقي، حاولتُ رؤية الأمر من منظور رجل الدين الباحث في العلوم الروحية لكن الطريقة التي وضع بها السيد جينينجز الهوامش والخطوط حول السطور أخبرني أن القراءة لم تكن لمجرد بحث.

في نهاية الصفحة ذاتها رأيت مقطعًا كاملاً مكتوبًا بالحبر الأسود وبخط شديد الصغر حتى إنني أيقنت حاجتي إلى عدسة مكبرة أو نظارة قراءة كي أتمكن من تفسيره إن رغبت، وهو ما لم أفعله. ليس بسبب الخط بل لأن السيد جينينجز افتتح المقطع بعبارة "فليرحمني رب السماء"؛ لذا شعرت بأن الأمر شخصي، لم أرغب في التطفل على هذا المقطع بالذات ولم أشعر بالراحة لقراءته. نهضت بهدوء من جديد بعد أن أغلقت الكتاب وحملت المجلدات كلها لأضعها حيث وجدتها تمامًا لكنني

تركت واحداً فقط منهم، رغبت فعلًا في معرفة إن كان جينينجز قد ترك هوامشَ فيه هو الآخر، ذاك الكتاب بالذات كان أحد المجلدات الأكثر أهمية بين المجموعة.

عدت إلى الطاولة مع المجلد، أجفلت حين رأيت انعكاسي في المرآة أمام الطاولة مباشرة فنظرت لها مطولًا؛ رغم عني شعرت بأن شيئًا ما ينظر لي عبرها، شيئًا غير انعكاسي. اقشعر بدني لهذا الشعور والتفت غريزيًا محاولًا البحث في كل إنش بالمكان بعيني، وبالطبع لم أرَ شيئًا.

لا أعرف كيف يتمكن جينينجز من البقاء هنا والقراءة أو الدراسة أو حتى مجرد الجلوس لمطالعة سريعة، لو بقيت هنا لأكثر من ساعة – رغم أن المكان يعج بالكتب القيمة ورغم كل ما مررت به في حياتي – سأجن بالتأكيد. رفعت نظري لأحد النوافذ الصغيرة التي سمحت لضوء نهار الشتاء البارد بالولوج في خطوط شاحبة لترسم بقع غائرة من الضوء في السجاد التركي، ثم عدت لأنظر بين صفحات الكتاب.

كان جينينجز قد قرأ هذ المجلد بالفعل، من الطريقة التي اهترأ بها الورق وتجعدت أطرافه. لكن الكتاب كان خاليًا من الهوامش، مجرد خطوط

سوداء هنا وهناك أسفل بعض الفقرات لكن لا كتابات شخصية. جعلني هذا أقرأ باطمئنان وأريحية أكبر.

في تلك السطور كتب سفيدنبوري عن نظريته وتفسيره لماهية تلك "الكيانات الشريرة" التي اقترنت بالبشر منذ الخلق، قسمهم إلى "موكلين" و"مرسلين". في تلك السطور أوضح أن الكيان المصاحِب لشخص واحد يُدعَى "مُوكَّل به"، في تلك الحالة ليس بإمكان الشخص العادي رؤية رؤية العين، كما أنه لا يتخذ شكلًا محدداً، لكنه حين يتحول إلى مرسل، لوسوسة أو إيذاء أو حتى مصاحبة شخص آخر غير الموكَّل به يصبح بمقدوره التشكل، ذاك الشكل يكون – غالبًا – على حسب ما يمثِّله الكيان من نوع الشر أو الشهوة التي يرغب في الوسوسة بها، أو بالشكل الذي يسقط أكبر قدر من الرعب أو عدم الراحة في قلب مَن هو مُرسَل إليه.

تسارعت ضربات قلبي أكثر وذات الذكرى التي حاولت تنحيتها منذ البارحة تعود لتلحّ في عقلي من جديد، أغمضت عيني لثانية وتنفست بعمقٍ ثم عاودت القراءة بتركيز أكبر، هنا كان سفيدنبوري يتحدث عن نوعية محددة من الكيانات الشريرة؛

القرين. ذاك الذي وضع جينينجز نفسه هوامشَ عنه في الكتاب السابق.

في تلك الفقرة قسمهم سفيدنبوري حسب أشكالهم، أنواعهم، أماكن عيشهم، وما يفعلونه في المعتاد أو إن تم التعامل معهم من قِبَل أشخاص. قرأت عن هذا التقسيم قبلًا وتذكرت أنني تناقشت فيه في إحدى الندوات التي انعقدت في ألمانيا منذ سنوات مضت مع لفيف من زملائي. دار النقاش وقتها عن إن كان من حقنا كمجتمع علمي قارئ وباحث في العلوم الباطنية السعي إلى تصحيح مفاهيم عامة الناس عن طبيعة "الأرواح التي تسكن الأماكن بعد موت أصحابها" و "الشيطان الذي تلبَّس أفراد العائلة" كي يتمكن المجتمع العادي من التفرقة بين الأمراض النفسية، الأعراض الطبيعية للكيانات التي تسكن مكان نفسه، والشياطين التي تستلزم فعلًا تدخل الكنيسة.

أتذكر أن أحدَ زملائي قال "يسافر الناس لبلاد العرب هنا بحثًا عن الجن بعد قراءة حكايات ألف ليلة وليلة، ألا تظن أن علينا إخبارهم بأن الجن لا يروم الصحاري فقط ولا يسكن المصابيح؟"



لم نفعل، لم نتابع السعي وراء نشر المعلومة وتركنا الموضوع وشأنه بعد فترة، سواء لأن كلًا انشغل في أموره الخاصة أو لأننا علمنا أن ما سنحاول فعله سيستلزم مجهوداً ضخماً لم يكن بوسعنا في تلك الأيام بذله، بالتأكيد لم أتوقع رؤية الموضوع مرة أخرى اليوم.

بينما أنا منغمس تماماً في القراءة شعرت بشيء ما يتحرك خلفي، ثم بأنفاس حارة على كتفي. توقفت عن التنفس للحظة وقد تجمد نظري فوق السطور ثم رفعت رأسي لأنظر إلى الانعكاس في المرآة قبل أن أنتصب بقوة. في البداية لم أرَ وجهه، كان يقف خلفي بثياب سوداء طويلة تغطي جسده بالكامل حتى كفيّ يديه، الشعر الداكن والعينان اللتان جعلهما الضوء الشحيح وانعكاس المصباح لونهما أسود فاحماً. كان ينحني من خلفي ليقرأ معي ما كُنت أقرأ.

احتجت إلى دقيقة كي أدرك أن ذاك الكيان خلفي لم يكن جنّا قد تجسد بعد أن أزعجته بقراءتي عنه، ثم إلى دقيقة ثانية كي أدرك أن ذاك الواقف خلفي لم يكن سوى الراهب جينينجز، وإلى دقيقة ثالثة حتى أتذكر أنني كنت في مكتبه، وقد تم ضبطي متلبساً.



الفصل الرابع

أربع أعين تقرأ واثنتان تراقبان

– سيد جينينجز!!

نهضت فوراً وقد أغلقت الكتاب فابتسم الرجل وهو ينظر متفحصاً العنوان ثم تحدّث ببساطة دون أن تبدو عليه أمارات الضيق:

– ناديت عليك مرتين سيدي، ثم سألتك كيف حالك لكنني لم أفلح في جذب انتباهك عن صفحات الكتاب. لذا – واعذرني تماماً لوقاحتي – دفعني الفضول لرؤية ما جذب انتباهك إلى هذه الدرجة.

دفعت ابتسامة على وجهي وأنا أستعيد رباطة جأشي لأضع الكتاب على الطاولة ناقراً على الغلاف:

– أجل، عليّ القول بأنك تملك مجموعة مثيرة للاهتمام جدّاً سيد جينينجز.

ضحك الرجل بأريحية وهو يشير لي بالجلوس ليجلس أمامي:



– نعم، طبيبي العزيز، عليَّ الاعتراف بأنني كنت أتوقع أن تجد تلك النوعية من الكتب مثيرة للاهتمام بالفعل، هل بإمكاني الافتراض أن تلك ليست المرة الأولى التي تقرأ فيها هذه الصفحات؟

أومأت مجيبًا:

– بالتأكيد، أنا مدين لسفيدنبوري بالكثير في الواقع. ستجد كثيرًا من وحي كتاباته في الكتاب الصغير الذي تفضلت بتذكره وطلبه منِّي، عن العلاقة بين الطب والعلوم الباطنية.

– هل بإمكاني سؤالك د. هاسيلياس، عن رأيك الشخصي فيما كُتِبَ؟

– كتابات سفيدنبوري كاملة؟

– لا، تلك الجزئية التي كنت تقرأ للتو فقط.

فتحت فمي لأجيب ثم التزمت الصمت، لم أكن مؤمنًا إيمانًا تامًا بكل ما كتب سفيدنبوري، أعني ثمانية مجلدات من الشرح المفصل كانت تحوي الكثير والكثير عن المعلومات، بعضها للأسف وجدته متناقضًا في شئون الجن والكيانات الروحية بصفة خاصة. لم أرغب في أن أضع رأيي كاملًا أمام



جينينجز الآن، ليس قبل أن أعرف ما جئت إليه كي أعرف على الأقل وقبل أن أروي فضولي من السبب الذي دفعه لكتابة كل هذه الهوامش، خفت أن أدفعه للكتمان إن قلت رأيًا صريحًا لذا أجبت:

– ككل باحث عليّ الاتفاق معه في بعض النقاط، لكن أخرى وجدتها.. حسنًا لنقل إن الباحث حين يستغرق كل هذا الوقت في عمل واحد سيضع الكثير من عقله الخاص فيه دون الاستناد إلى أسس.

– البصمة الشخصية.

– نعم، البصمة الشخصية ليست دائمًا محببة في هذا النوع من الأبحاث بالذات. لا أعاتب على سفيدنبوري بصورة شخصية بالطبع لكن كان يقع أحيانًا في نفس الخطأ الذي يقع فيه كل باحث منا، الإيمان المطلق فجأة بأن ما يدور في عقلك حقيقي إلى الحد الذي يدفعك لتطويع كل الحقائق الأخرى لتتناسب معه.

أومأ السيد جينينجز بصمتٍ وعلى محياه لمحت تورد خفيف بوجنتيه وبعض القلق في عينيه حاول إخفاءه بالصمت أحيانًا والحديث المنمق أحيانًا أخرى،



لم أرغب في الضغط عليه لكنني عرفت أنه يحاول ترتيب ما عليه قوله الآن، وما عليه تركه لما بعد.

– أخشى أنني غيرُ مؤهل نهائيًا للحكم على ما كتب سفيدنبوري، لم أقرأ تلك المجلدات قبلًا، ولم تصبح في حوزتي إلا مؤخرًا. كل ما أستطيع قوله بصراحة هو أن مثل تلك التفسيرات التي وضعها بكتبه من شأنها أن تضَع رجلاً يعيش وحيداً مثلي في حالة من التوتر والقلق الدائم؛ لا أقول بالطبع إنها فعلت هذا بي!

ثم ضحك بتوتر فشاركته الضحك كي أخفف عنه الإحراج قبل أن يتابع:

– لكنها بالفعل ستفعل هذا مع أي شخصٍ آخر يحيا وحيداً؛ لكن عليّ الاعتراف د. هاسيلياس أن على عكس ما كُتب في تلك المجلدات، وجدت كتابك أكثر قابلية للتصديق وأكثر اتفاقًا مع معتقداتي الشخصية. أنا شاكر جدّاً لك لأنك أرسلت لي النسخة.

أثنيت عليه كثيرًا وأخبرته أن لا داعي للشكر وأنني سعيد للمساعدة، بدا أكثر راحة بعدها، وأكثر انفتاحًا وهو يحرك يده قليلًا بصورة توضيحية وهو يتكلم:



– سأعترف لك بشيء د. هاسيلياس، قلما أجد كتابًا يجذبني إليه أو يدفعني لاصطحابه أينما ذهبت. وقد وجدت هذا في كتابك، هناك شيء ما به. شديد الارتباط بي.

شديد الارتباط بي؟، حاولت تفسير ما يعنيه بذلك في عقلي لكنه لم يوضح بل تابع.

– لكنني شعرت – واسمح لي – بأنك لم تكتب كل شيء بالتفصيل وتركت الكثير والكثير خارج الصفحات. أخبرني سيدي هل تعرف الطبيب هارلي؟

هارلي، بالتأكيد سمعت به، من في إنجلترا لم يسمع به؟. كان واحداً من أشهر أطباء إنجلترا كافة وتعجبت من ذِكره في مجرى الحديث لكنني أجبت بصراحة:

– بالتأكيد، تعاملت معه قبلًا وقد كان شديد الاحترام واللباقة حين قابلته في زيارتي السابقة لإنجلترا، لم أرَ منه إلا حسن المعاملة حتى في خطاباته.”

– حسنًا.



قال جينينجز ثم تحول تعبيره من الابتسام إلى شيء ما بين الصرامة والسخرية:

– أعتقد أن د. هارلي من أكبر الأغبياء الذين عرفتهم إنجلترا في تاريخها.

أجفلت متفاجئًا من ذلك النقد اللاذع الذي خرج من جينينجز فجأة، خاصة وأنني لم أرَ منه سوى التهذيب واللباقة منذ التقيته، كانت الكلمات التي أطلقها على عكس شخصيته تمامًا وخمنت منها أن الرجل مرَّ بتجربة شخصية سيئة مع الرجل.

– حقًا ؟، لكن اسمح لي في سؤالك عن السبب؟

– الرجل غبي في ممارسة مهنته، غبي تمامًا كطبيب.

حاولت الابتسام لطمأنته بعد أن رأيته صارمًا ومتوترًا لكنه لم ينتبه بل اندفع يقول:

– أعني التالي.

تنفس بعمق ثم تابع:

– الرجل يعمل بنصف عقل تقريبًا، متصلب العقل وعنيد بشكل شديد الاستفزاز. بدا لي أنه إما يرى



الأمور كأبيضَ تمامًا شديد السطوع، أو أسود حدَّ العمى، ليس لديه تفسيرٌ وسط للأشياء، لا يحاول الربط بين العرض والمرض، هو إما العرض والمرض الذي يعرف، وإما وساوس في عقل مريضه. يعمل بشكل ميكانيكي تمامًا وكأنه آلة ميتة. تعاملَت معه للأسف لفترة طويلة لأنني لم أجد سواه وقد أُصبت بالحنق في نهاية المطاف عليه وعلى طريقته تلك.

لاحظ جينينجز أنني أحدق به طوال تلك الفترة فأشاح بنظره وحاول الهدوء قليلًا:

– ربما أخبرك بما أعنيه كاملًا يومًا ما، سأخبرك بالتفسير بالتأكيد يوم ما د. هاسيلياس.

ثم عاد ونظر لي متسائلًا:

– أخبرتني ماري أنك ستبقى في إنجلترا لعدة شهور أخرى، هل تسمح لي – إن سافرت إلى خارج لندن – لفترة مؤقتة بأن أراسلك؟

– بالتأكيد !، هذا شرف لي.

طمأنته فابتسم وهو يعاود الكلام بثقة أكبر:



– شكرًا، شكرًا جزيلًا لك د. هاسيلياس. فقد ضقت ذرعًا ب د. هارلي حقًا.

ابتسمت مرة أخرى وأنا أومئ باحترام:

– د. هارلي يميل للمدرسة الواقعية بعض الشيء.

– لا ليس بعض الشيء.. بل تمامًا!!، عقله متحجر داخل إيمانه بمادية كل شيء.

صحح لي ثم تابع:

– وبالنسبة لرجلٍ يعرف أن الحياة بها أكثر من مجرد المادة، ستجدني على خلافٍ تامٍ مع مَن هُم من أمثال د. هارلي؛ لذا إن سمحت لي د. هاسيلياس بأن ألجأ إليك في حال عاودَتْني نوبة أخرى أو مشكلة ما، لأنني أميل للاعتقاد بأنك أكثر تفتحًا من د. هارلي هذا.

– كما قلت لك سابقًا، الشرف لي سيد جينينجز.

– و...

تردد قليلًا ثم قال مؤكدًا:



– عليّ الإصرار على طلبي بأن لا يعرف أي شخص، أي شخص على الإطلاق باتفاقنا هذا أو بما أخبرك به الآن، لا ماري، ولا أيٌّ من معارفنا أو أصدقائنا المشتركين. لا الآن ولا أبدًا. لا أحد منهم يعرف بالفعل أنني استشرت د. هارلي، أو أي طبيب على الإطلاق. سأفسر كل شيء لاحقًا لكن أرجو أن تتفهم.

أكدت عليه من جديد بابتسامة:

– لا داعي للقلق سيد جينينجز، كل ما تقول وكل ما سنتحدث عنه سر بيننا بالطبع.

– لم أتوقع منك سوى كلَّ خيرٍ سيدي العزيز، حسنًا كما اتفقنا إن سمحت لي في تلك الأيام التي سأكون بها خارج لندن سأراسلك، وحين أعود سأستأذنك إن كان بإمكاننا الجلوس معًا والحديث، سيعني هذا الكثير لي.

كنت في تلك اللحظة مليء بالتخمينات، عقلي ظلَّ طوال ذاك الوقت يقدح محاولًا وضع رأس وذيل للمحادثة أو ما يعاني منه السيد جينينجز وما يستدعي البحث عن طبيب متفتح الذهن، ما علاقة ما يعانيه بالمادة والروحانية، بقيت أخمن وأفكر حتى إنني لم ألاحظ أنني أطَلت النظر له حتى احمر



وجهه من جديد وأشاح ببصره عني فاعتذرت فوراً لكنه حرك رأسه نفيًا وقال:

– لا تقلق، أعرف أن الفضول سيدفعك للتخمين سيدي، وأنك راغب في معرفة الآن فوراً ما أعنيه وما أعانيه. لكن عليّ القول بأنك إن قضيت الساعات من الليلة إلى ما تبقى من أيامٍ حياتك محاولًا التخمين فلن تصل للأسف إلى الإجابة.

ثم ضحك بألم فشاركته الضحك قليلًا وأنا أقول:

– متى وأينما كنت مستعداً سنلتقي وستخبرني وسأساعدك، وكما وعدتك سابقًا سرك في فجٍّ عميقٍ معي سيد جينينجز، لا تقلق.

ابتسم وشكرني بحرارة مرة أخرى محاولًا إخفاء أمارات الألم التي كانت واضحة للغاية على وجهه في تلك اللحظة، لم أسأل مرة أخرى ولم أضغط وهو لم يحاول الحديث في الموضوع من جديد. قررت ترك كل شيء لوقته والانتظار، الصبر مفتاح كل شيء.

عبرَتْ سحابة في تلك اللحظة لتخفي شمسَ النهار الشاحبه فتبددت الأشعة القليلة النافذة إلى داخل المكتب، أخذ السيد جينينجز في اللحظة ذاتها



نفساً عميقاً وهو ينظر إلى نقطة ما خلفي. بدت عيناه غائمتين ووجهه شاحباً للغاية، في هذه اللحظات القليلة شعرت كم كان مثقلًا بالهم، كم كان كتفه منحنياً وكأنه يحمل جبلًا بين كتفيه. شعرت بالتعاسة من أجله لكنني كنت صادقاً حين وعدته بالمساعدة. رغبت بولوج عقله ورؤية ما يحدث هناك، أو النفاذ إلى ما بعد غشاوة عينيه ورؤية ما يراه، لكنني كنت جالساً هنا. مقيداً بجسدي المادي وبعقلي المحدود.

أدركت وقتها أنني سأبذل ما بوسعي لأكون عوناً، سواء تمكنت من حلّ مشكلته أم كنت أضعف منها سأكون هنا لمساعدته بصدق وإخلاص.

تبادلنا الحديث في أمورٍ شتى لثلاثين دقيقة تقريباً، أصبح الجو أكثر برودة لكن الحديث أكثر حرارة وتبددت الغمامة الثقيلة التي حطت على الجلسة منذ بدايتها، ثم افترقنا في النهاية وذهبت عالماً أنني بالتأكيد عائدٌ إلى هنا، وقريباً.



الفصل الخامس

ريتشموند

ارتج جسد ماريا بالكامل، ارتج وانتفض وكأنها فوق قضبان قطار.

بدأت صلوات زوجها تعلو عن الهمس بينما هو ينقل بصره بيني وبين المصوِّر المتمركز على يساري في الانتظار. انتفضت الزوجة مرة أخرى وبدأت رائحة غريبة تفوح من الفراش فأشار رابِعًنا للمصور بالبدء، سمعت الفرقعة الأولى للصورة الأولى وسرعان ما شعرت بأن ما يحدث الآن خطأ كبير.

كان الوضع كله خاطئًا.

كانت الزوجة في لحظاتها الأخيرة، اللحظات الأكثر ضعفًا وخصوصية في حياة أيِّ واحدٍ منَّا، ووقوفنا هنا لمراقبة موتها لم يكن قرارًا صحيحًا، تملَّكَني الخزي للحظات حتى سمعت الفرقعة الثانية الآتية من عدسة الكاميرا جواري، انتفض جسد ماريا من جديد ثم هدأ، كانت تعاني اثناء موتها، تلك الانتفاضات لم تكن عرضًا شهيرًا للموتى من مرضى السل، جعل هذا الموقف كله أكثر غرابة

وكدت التفت إلى زوجها لأخبره بأن الاختبار يكفي وأن علينا تركها في اللحظة الأخيرة تمامًا وشأنها ولنكتفي بما التقطناه.

لكن في تلك اللحظة سمعت الفرقعة الثالثة للكاميرا وفي تلك المرة لم تكن فرقعة عادية لفلاش التصوير، بل ما كان شبيهًا بانفجار. أجفلت منتفضًا من مكاني وأجفل الرجال معي، فتحت فمي لأسأل لكنَّ حرارة الغرفة بالكامل انخفضت فجأة، ثم انطفأت الأنوار حولنا في اللحظة ذاتها تقريبًا.

أكاد أقسم حتى اليوم إنني رأيت ما يحدق بي في السواد من على رأس فراشها، ذات الوجه الذي رأيته في الصورة، صرخ الزوج وخرج، وحين فُتح الباب الضوء الشحيح الذي نفذ من الخارج إلى داخل الغرفة انسكب مباشرة فوق الفراش، لم أرَ شيئًا هناك سوى الجسد الهامد، انسحب المصور من جواري إلى الخارج وكنت آخر من غادر الغرفة، في الواقع لم أخرج إلا بعد أن شعرت بحضورٍ ما، ليس لكيان واحد، بل عدة كيانات سحبت الهواء من الغرفة بأكملها، كل شيء فاح برائحة البول والفضلات بعد أن همد جسد ماريا وأطلق ما



بداخله، لكن رائحة أخرى عبق بها الجو فجأة، عطن وتراب.

لم يكن حضوري مرغوبًا فيه في هذه اللحظات وهو ما أدركته بقوة، وكأنه يتم طردي، للمرة الأولى في حياتي أشعر بالخوف لكنها كانت المرة الأولى من حياتي أيضًا التي أحضر فيها لحظة احتضار، ما إن التفت مغادرًا حتى شعرت به من جديد، لو كان لدي عينان في مؤخرة رأسي لتمكنت من رؤيته بالتأكيد رؤيا العين، الشيء الأسود على طرف فراش المرأة الميتة، لكنني للأسف لم أملك تلكما العينين؛ ولم أتمكن من رؤيته.

فارقت العائلة ذلك اليوم ولم نلتقِ من جديد، لم يحاول الزوج استشارتي مرة أخرى، كل ما علمته أن الصور لم تظهر من الأساس وأن الفرقعة التي سمعتها كانت الصورة تحترق لا تظهر، كل شيء كان أسود ومغطى بالضباب في الصور.

بالطبع لم يكن بوسعي التأكد إن كانت تلك كذبة قالها الزوج لأنه رأى من الصور ما لم يكن من المفترض رؤيته، أم كانت هي الحقيقة. لكن ذاك كان ختامًا وفراقًا بيني وبينهم. لم أكن في حاجة إلى الصور على أي حال، ما شعرت به في تلك الغرفة تلك الليلة كان كافيًا.

لم يعاود ذاك الشعور مداهمتي إلا في النهار الذي افترقنا به أنا والسيد جينينجز، على عتبة باب بيته. صحيح أننا افترقنا بعد جلسة سعيدة لكن لم يكن أيٌّ منّا سعيداً، لم يكن أيٌّ منّا يشعر بالراحة، وقد تجلى هذا واضحًا على قسمات جينينجز وهو يودعني رغم أنه حاول بكل الطرق إخفاءه.

على الرغم من كوني طبيبًا ومن كوني قد رأيت وعاشرت الكثير من الباحثين، المرضى، المحتضرين على حدٍّ سواء. إلا أن تعبيرات الوجه ما زالت ترعبني، تلك النظرة السريعة عبر العينين إلى الروح، خاصة تلك التي كانت على وجه جينينجز في اللحظة الأخيرة قبل افتراقنا، هزت ثقتي بكل شيء وشعرت بشيء يتهاوى داخلي حتى إنني قررت إلغاء كل خططي لليلة والذهاب إلى أي عرض في الأوبرا، أي عرض دون حجز ودون أن أهتم للمحتوى، فقط كي أهرب من ذاك الشعور بالخواء الذي انتقل عبر عينيّ جينينجز من روحه إلى روحي.

لم يصلني أيٌّ خبرٍ عن جينينجز طوال ثلاثة أيام تلت لقاءنا الأخير، حتى إنني كنت قد بدأت في القلق ورغبت في الذهاب بنفسي والاطمئنان على الرجل. لكن لحسن الحظ سبق خطابه زيارتي وقد جاء على عكس ما توقعت يحمل قدرًا كبيرًا من

الأمل والسعادة، أخبرني فيه جينينجز أن حاله في تحسّن كبير للغاية وأنه لم يعد يعاني حتى بدأ الظن أنه في طريقه للتماثل للشفاء تمامًا، أخبرني مازحًا أن زيارتي ربما قد "طردت الشياطين من حوله" وأنه يتفاءل بوجودي وصداقتي، وأنه ممتن بالاتفاق الساري بيننا.

في رسالته جاء جزء كبير يشكر فيه الرب لمنحه القوة ولمساعدته، أخبرني أنه يصلي كثيرًا تلك الأيام طالبًا النجاة وأنه ربما قد جاءت الإجابة من السماء أخيرًا، حتى إنه قرّر خلال الأيام القادمة أن ينطلق من جديد إلى كنيسته الصغيرة التي يخدم فيها كي يحاول استعادة عافيته والرجوع إلى طبيعته بقيادة قداس أو اثنين من جديد كي يختبر حالته الصحية الجيدة الجديدة.

أكد على أنه سيراسلني من هناك وأنه شديد التفاؤل.

بعدها بيومين التقيت بماري من جديد لتخبرني بدورها أن خطابًا قد وصلها من السيد المحترم جينينجز وأنها شديدة السعادة لأنه عاد إلى إبرشيته وكنيسته من جديد، جاء خطابه لها مماثلًا لخطابه لي، مليئًا بالتفاؤل وقوة الإرادة.



أخبرتني ماري أنها كانت متأكدة أنه سيتعافى قريبًا وأن ما به كان مجرد سوء طالع.

– بدأت اشعر انه – في الواقع – صحيح تمامًا، وأن ما به لم يكن سوى مجرد تعب أعصاب بسيط وسيزول بمجرد أن يعود لممارسة عمله، أحيانًا كل ما تحتاجه هو العودة للعمل الجاد كي يعود نشاطك مرة أخرى، كي يزول الاكتئاب والعلل. أحسن الراهب العزيز بالعودة إلى كنيسته. كان اختيارًا موفقًا.

أخبرتني أنها تتوقع أن يغيب الراهب العزيز هناك لشهورٍ إن لم يكن لعام كامل لممارسة أعماله أخيرًا مرة أخرى، رغم إعلان ماري هذا إلا أنني لم أشاركها نفس التفاؤل بصراحة، لكنني بالطبع لم أعلن عن هذا وحاولت أن أكون بشوشًا قدر المستطاع؛ وقد كنت محقًا.

فبعد يومين بالضبط وصلني خطاب آخر من جينينجز، لم يكن هذه المرة يحمل ذات الثقة والبشاشة كما في خطابه السابق لكنه كان بائسًا تمامًا.

"عزيزي الطيب هاسيلياس.



عدت خائب الأمل، ما كان عليّ أن أتفاءل إلى هذا الحد منذ البداية، كان هذا خطأ مني. آسف لأنني خيبت ظنك ومنحتك أملاً زائفًا. إن وجدت داخلي القوة والشجاعة لتدبير لقاء بيننا سأفعل، لكن حتى هذا الوقت لا أستطيع الحركة، ليس بوسعي الخروج، لا أرغب في رؤية أحد أو في الحديث حتى. لا أبالغ إن قلت إنني أجد صعوبة في كتابة هذا الخطاب حتى.

أرجوك د. هاسيلياس لا تخبر أحدًا من أصدقائنا – خاصة ماري – شيء عن حالي، لا أرغب في أن يزورني أحد، لا طاقة لي باستقبال أي شخص الآن. سأحاول السفر إلى شروبشاير للبقاء مع بعض من أقاربي، ربما هناك ومع التغيير أتمكن من تصفية ذهني والعودة إلى حال أفضل مع أنني أشك بوجود أي علاج لي.

أتمنى – بمشيئة الرب – أن أعود أحسن حالاً بما يكفي كي نلتقي، ادع لي كثيرًا ولا حاجة لي بالتأكيد بألا تذكر أي شيء عن خطابي لأحد."

بعد أن تلقيت خطابَه بأسبوع قابلت ماري من جديد ببيتها في برايتون، كانت لندن هادئة نوعًا ومنزلها الذي كان مفتوحًا دائمًا للأصدقاء والزوار هادئًا بعد أن انتهى موسم الزيارات في لندن ورحل الأصدقاء



إلى بلادهم. أخبرتني أن خطاب وصلها من أحد أقارب السيد جينينجز – مارثا كان اسمها – وبعد أن أرتني الخطاب وقد بدت قلقة، سألتني إن كان بإمكاني وضعُ رأس وذيل لما كُتِبَ هنا، لم تفهم بالضبط ما مشكلة جينينجز، قالت مارثا في الخطاب إن قريبها متعبٌ دائمًا ومتوتر، يحتاج للراحة على الأرجح.

الراحة، هذا ما فكرت فيه مارثا وهذا ما ظنته ماري. كم كان سهلًا على بعض الناس أن يضعوا كل معاناة تحت خانة "هم في حاجة إلى الراحة لا أكثر". دون محاولة البحث أعمق عن المشكلة أو عما يعانيه المرء في الحقيقة، تحت غطاء التعب والإرهاق.

كنت قلقًا على جينينجز لكنني بالتأكيد لم أخبر ماري، ما إن عدت إلى منزلي الخاص حتى فكرت في الكتابة إليه، لكنني فورًا تذكرت أنه أخبرني بوضوح برغبته في العزلة مؤقتًا كي يستجمع شتات نفسه.

"كنت مخطئًا" ترددت كلماته في ذهني كثيرًا.

"لو قضيت الساعات حتى نهاية أيامك في محاولة تخمين ما اعاني منه لما وصلت إلى إجابة. "ما



انفكت جملته تعود إلى عقلي لتزيد من توتري، بالفعل لم أكن أعلم ما يعاني منه جينينجز، لم يكن بوسعي تخمين حتى ما المشكلة من مجرد بعض الهوامش التي كتبها في أحد كتبه.

حاولت ربط ما قال بما كُتِبَ الأيام الماضية لكنني خفت أن أحيد بعيداً تماماً عن الحقيقة بالحد الذي يحول من صورتي في ذهن الراهب العليل من الطبيب القادر على المساعدة إلى الطبيب المجنون؛ قد تكون الهوامش مجرد هوامش، قد لا يكون لما يعانيه جينينجز أي علاقة بكلمات الكتاب وتفاسيره عن الكيانات من جهنم والجن وما شابه.

كان عليَّ الانتظار لأعرف، وانتظرت بصبر.

* * *

مرت خمس أسابيع كاملة دون خبرٍ واحدٍ عن جينينجز، حتى حين حاولت مراسلته بنفسي عاد الرد على خطاباتي بأن السيد لم يَعُد إلى منزله في لندن بعد، لم أكن أعرف عنوانه في شروبشاير ولم أرغب في الاطلاع عليه من ماري كي لا أثير التساؤلات لذا ابتلعت شكوكي وانغمست في أشغالي الخاصة منتظراً، حتى جاء الرد أخيراً بطَرقات على باب بيتي.

كان خادمه المتفحص غريب الأطوار، أخبرني أن السيد بعث لي بخطابٍ وسلّمني إياه فدعوته للانتظار ريثما أنتهي من القراءة وأرسل الرد معه، سألته أين كان جينينجز فأخبرني أن ليس بوسعه القول وأن الخطاب على الأرجح سيخبرني، لكن السيد نبّه عليه أنه في حال التقى بأي أحدٍ، ألا يقول مكان إقامته حرصًا على عدم الزيارة.

فضضت الخطاب مسرعًا ووجدت التالي:

"عزيزي د. هاسيلياس.

تركت البلاد بعض الوقت، عدت الآن بعد أن حاولت تغير كل شيء. كل الوجوه التي ألتقيها، الهواء الذي أتنفسه، حتى طعامي وشرابي قمت بتغييرهما. الطبيعة حولي والناس وكل شيء كنت قادرًا على تغييره برحلة بسيطة بين هنا وهناك. لكن الشيء الوحيد الذي عجزت عن تغييره هو نفسي.

حاولت، ويشهد الرب أنني حاولت، لكنني الآن ما عدت قادرًا على التحمل، وأجدني مضطرًا إلى إخبارك بالحقيقة بالكامل قبل أن أجن أو أقدم على ما هو أسوأ.



أرجو ألا تظن بعقلي الظنون د. هاسيلياس، لم أكن لأزعجك لولا أنني توسمت فيك تفتُّح العقل واحترام الصداقة المتبادلة بيننا. أنا في حاجة إليك الآن أكثر من أي وقت، وإلا سأفقد عقلي.

لدي منزل هادئ في ريتشموند – حيث أنا الآن – وأرجو منك إن كانت مواعيدك تسمح بأن تأتي لزيارتي في أقرب وقت ممكن، اليوم، غداً، أو بعد غد إن كانت ظروفك مناسبة. لكنني أتوسل إليك ألا تؤجل اللقاء لما هو أبعد من هذا؛ فأنا لا أعرف إن كنت سأتمكن من تحمل ما يحدث لي أكثر.

فلنلتقي لتناول العشاء معًا، أو غداً للغداء، أو حتى لشرب الشاي فقط، لكن أرجوك تعال إلى زيارتي. ستجدني متواجداً بمنزلي بكل الأوقات فأنا لم أعد أخرج أو أرى الشارع كثيراً في الواقع.

ستجد العنوان بسهولة د. هاسيلياس، أبلغت خادمي الذي يحمل الخطاب لك الآن بأن يجهز عربة خصيصًا لنقلك من منزلك لمنزلي في أي وقت وساعة تقرر فيها القدوم، سيحملك إلى هنا متى تقرر هذا. أخبره إن سأل بأنك تلقيت مني دعوة وأنك لا ترغب في أن أبقى وحيداً كلّ هذه الفترة بدون صديقٍ داعمٍ. من شأن هذا أن يروي فضوله وإن قرر – لأي سبب كان – نقل ما حدث لماري أو أيّ



من الأصدقاء الذين لاحظوا غيابي، سيكون ردّه مناسبًا لإشباع فضول الجميع دون التصريح بأي حقيقة، أو أي معلومة أكثر مما يجب.

سأكون في انتظارك د. هاسيلياس، وسترى بنفسك ما فعلت، يشهد الرب مرة أخرى أنني فعلت كل ما بوسعي، لا يسعني شرح المزيد سترى بنفسك ما إن تأتي للزيارة.

تحياتي لك دائمًا، سأكون بالانتظار."

بعد الانتهاء من قراءة الخطاب قررت الا أؤجل زيارتي لجينينجز إلى الغد واخبرت الخادم بتجهيز العربة الليلة، حضرت أشيائي الخاصة في حقيبتي الصغيرة وانطلقت بالفعل دون دقيقة تأخير إلى ريتشموند حيث سألتقي بالسيد جينينجز، داعيًا ألا يقدم على مكروه حتى أصل.

مع اقتراب النهار من نهايته واصطباغ السماء بالأحمر بدأ الطريق الممهّد للمدينة يختفي وتحولت الأرض إلى ثعبان ترابي متعرج يقود إلى الريف. أخرجت رأسي من العربة لأنظر إلى ما حولي بوضوح أكبر وسرعان ما لمحني السائق وأشار إلى نهاية الطريق معلنًا أننا أوشكنا على الوصول.



حتى من مكاني هذا كان بإمكاني رؤية المنزل الذي اختاره جينينجز للبقاء، واقشعر بدني فوراً.

في حالته النفسية تلك كان من الأفضل والأصح له اختيار غرفة في فندق، أو منزل صغير حيث صخب المدينة ليتمكن من قضاء وقته والاندماج مع أناس آخرين، ليتعافى قليلًا أو يشتت عقله بعض الشيء عن علته، لكنه عوضًا عن هذا قرر البقاء هنا.

أخبرني السائق أن المنزل في حيازة السيد جينينجز، وأنه بعد قضاء يومين بالضبط في المدينة قرر الانتقال إلى هنا للانعزال عن كل شيء آخر، لم أكن بالطبع أعرف وقتها لِم قرر هذا أو ما الذي فشل صخب المدينة في علاجه لكن المشهد أمامي أخبرني بأن المشكلة أكبر مما اعتقدت في البداية.

توقفت العربة وترجلت منها حاملاً حقيبتي لأشهد البيت الحجري الأسود القائم وسط غابة من أشجار الدردار الشاهقة. دُكنة الأشجار وحجمها الضخم جعلها أقرب إلى أجساد منها إلى أشجار، أجساد بشرية مكسوة بالسواد التفت من كل الجهات حول المنزل الضخم، تعانقت الجدران حتى كادت تنفذ عبرها. الأرض أمام المنزل كانت مستوية الحشائش في بعض المواضع لكنها صخرية وغير



ممهدة في مواقع أخرى، لا أعرف لِم اختار جينينجز هذه النقطة بالذات لمنزله لكن البيت الحجري بدا بالفعل مملوكًا لشخص يتعذب.

البيت نفسه بدا كما لو كان يصرخ تحت وطأة فروع الأشجار المتشابكة في عناق يحاصره أسفل السماء المصبوغة بخيوط المغيب الدامية.

التفت ناظرًا إلى السائق الذي مَثَل أمام العربة باحترام في انتظار رحيلي عاقدًا كفيه أمام خصره، تحركت في اتجاه المنزل شاعرًا في كل خطوة بأنني سأغوص إلى فم مفتوح لشيطان انبثق من الأرض نفسها، من بين الأشجار، عملاق حجري نائم ينتظر ليبتلعني إلى جوار جينينجز.

فتح لي الخادم الباب وولج إلى الداخل قبلي مشيرًا لي بالاتجاه إلى الغرفة في نهاية الدور الأرضي، غرفة الرسم كما قال. ثم أغلق الباب واختفى داخل أحد الغرف خلف باب من الأبواب الأخرى.

وقفت بمكاني للحظات أتأمل ما حولي، كان البيت من الداخل كبيرًا لكنه معتم تمامًا، اللهم إلا من مصباح وحيد في نهاية غرفة مفتوحة مبطنة الجدران بالسجاد وراس وِعل صنع الضوء الساقط على قرونه ظلال تتلوى وتكبر ثم تصغر بين جنبات



الغرفة. الأرض الخشبية أسفل قدمي كانت نظيفة، عرفت هذا رغم الدُكنة لأن انعكاس الضوء الشحيح الآتي من الخارج ومن المصباح انعكس عليها واضحٌ نوعًا ما.

صنعت قدماي أصواتَ نقر بدت شديدة الصخب وسط الهدوء، وسرعان ما شعرت بأنني مُرَاقب. كنت مُرَاقب من لحظة عبوري الباب إلى الداخل، انقبض قلبي وتحوَّل عقلي فجأة إلى حالة الدفاع مثيرًا وملحًا في سؤال واحد. لو حاولت الفرار من هنا.. هل سأنجو؟

تقدمت إلى حيث غرفة الرسم، كان الباب مفتوحًا على مصراعيه والغرفة بالداخل كانت ضخمة، شديدة الضخامة في الواقع حتى إنها بدت كساحة رقص. فارغة إلا من كراسٍ قليلة أمام جدار كامل من الزجاج كان في مواجهة مشهد الغروب، كللته من أعلى جهة الخارج أفرُع أشجار الدردار المنتظرة حوله فنفذت خيوط الشمس الحمراء في كبد السماء الدامية إلى الداخل عبر الزجاج وعبر الفروع صانعة ظلال مشوهة على خشب الأرض البندقي اللامع.

في مواجهتي كانت الجدران هنا أيضًا مبطنة، مع ساعة ذات بندول ذهبي لا يتحرك ومدفأة غير مشتعلة. جنبات الحجرة كلها كانت مظلمة



والوسط فقط هو ما تلقى الضوء الآتي من المغيب.

هنا كان شعوري بأنني مُراقَب أقوى من أي مكان آخر، خطوت به سواء في هذا البيت أو في أي بيت ولجته في حياتي السابقة. تسارعت ضربات قلبي قليلًا وأنا أتلفت حولي، كان المنزل كما كان صاحبه، معتمًا، عليلًا، غريبًا ومسربلاً في ظلمة كسواد ثياب الكهنوت الخاصة بجينينجز.

المنزل كان مسكونًا لا محالة، بماذا بالضبط؟، لا فكرة لدي. لكن الظلال في كل جانب كانت تتحرك، الروائح كانت تتبدل، والبرودة كانت تشع من كل ثقبٍ وكل خيط بين الأحجار، كلما دققت أكثر في النافذة الضخمة أو السقف أشعر بأن الخشب والزجاج والحجر يقترب إنشًا ثم يبتعد، في حركة أقرب للأنفاس.

من جديد شعرت بأنني مُحَاصر، لو رغبت في لحظة ما بالفرار، هل ستطبق فروع الأشجار بالخارج عليَّ؟، هل سيتحول الخشب أسفل قدمي إلى عجينٍ لأنزلق إلى فجوة من السواد في قلب بيت ريتشموند؟. لأصبح منسيًا إلى أن تقوم الساعة؟

حاولت صرف تلك الأفكار عن عقلي واتجهت للجلوس، كانت المقاعد مريحةً، حمراء كالنبيذ بدورها كلون السماء. لو لم أكن أعرف جينينجز بصورة شخصية ولو لم يخبرني السائقُ بأن المنزل مِلكٌ له لظننت أن الشيطان ذاته يعيش هنا، تدق حوافره على الخشب المصقول في المساء أثناء تجواله بين الجدران المعتمة منتظرًا قيامته وقيامتنا، تتألق عيناه لتنعكس حُمرتهما على النوافذ المغلقة، يتنفس صابرًا كحفيف الرياح المنسل من مكان ما هنا، لا أعرفه ولا أستطيع تحديده.

الشيطان يعيش هنا، والكوابيس أيضًا.

ومعهم يعيش جينينجز، مرتعبًا، أسيرًا وفي طريقه للجنون أو الانتحار.

قبل أن ينسل اسمُ جينينجز من بين تلافيف عقلي سمعت بابًا يُفتَح في أحد جنبات القاعة الغارقة في الظلام، ثم رأيت جسده الطويل يدلف إلى الداخل، مرتديًا ثيابَ كهنوته السوداء مع الطوق الأبيض، بوجه شديد الشحوب وقامة مشدودة. كان يسير كما لو كان يطفو، دون أن تصدر قدماه صوتًا ولا تحدث ثيابه حفيفًا.



اقترب مني وفي ضوء النهار القليل الباقي رأيت وجهه وعينيه الغائرتين، لم أتكلم ولم يفعل هو، نظر إلى الخارج بضعف وصمت ثم حلّ يديه ليجلس جواري تمامًا، واضعًا كفًا ذا أصابع طويلة عظمية على ذراعي محييًا ثم أغلق عينيه لثانيتين.

كنت مندهشًا لأن عقلي بدأ تلقائيًا في حساب كل دقيقة وثانية تمر هنا، وكأنه يستعوض بذلك الحساب عن الساعة المتوقفة أمامي ليشعرني بأنني ما زلت حيًا، الزمن لم يتوقف والعالم لم ينتهِ.

تنفس جينينجز بعمق ثم فتح عينيه من جديد ناظرًا إليّ بألم، وبدأ في الكلام.



الفصل السادس

القرين

تراجعت الشمس أكثر حتى بدأ الأزرق القاتم يحتل السماء، خفت الضوء وتبددت الأشعة فبدت كعينٍ من نار تحدق بنا من الأفق، ترانا من بين فروع أشجار السرو، أنا والسيد جينينجز الجالس كطيف بشر جواري، منتصب القامة رغم تعبه، مشدود الجلد حتى برزت عظام وجنتيه التي تلوت العروق الزرقاء فوقها كثعابين بائسة.

لم تعد نظرته تحمل الحماس أو الحذر أو أيّ تعبيرٍ بشَريٍّ آخر، كان خاويًا تمامًا. مُظلِمًا من الداخل كما هو من الخارج، حين تحدّث جاء صوته كما لو كان قادمًا من فجٍّ عميق، لم يكن ذلك صوت جينينجز الذي عهدت لكن من أخدع، لم أكن أعرف عنه سوى ما أخبرني وما أخبرتني ماري في اللقاءات القليلة بيننا.

– بدأ كل شيء في الخامس عشر من أكتوبر.

انعكس قُرص الشمس على مقلتيه فصارت عيناه كجرح مفتوح، تململت أصابعه العظمية الطويلة



في حجره وهو يتابع دون أن يحول نظره من النافذة لي، كمَنْ يستمد قوته من اللا شيء في الخارج.

– في الخامس عشر من أكتوبر، منذ ثلاث سنوات، أحد عشر أسبوعًا، ويومين.

قالها بصوت ضعيف، عددها. كل تلك الأيام!. فتحت فمي ثم عاودت إغلاقه فقال وهو يحول نظره إليّ لحظيًا كمن قرأ أفكاري:

– عددتها نعم، لأن كل يوم فيها كان عذابًا.

لم يأتِ أيُّ صوت من الخارج، من حولنا. لا طنين ولا حركة عجلات فوق الطريق الترابي، لا أصوات لطيور الليل حتى، تحركت قمم الأشجار في البعيد لكن رغم الأشجار الكثيرة المحيطة بالمنزل إلا أنني لم أسمع ولو فرعًا واحدًا يرتطم بحجر أو لوح خشب. وكأن كل شيء هنا كان أسيرًا لسكون تام، عدا رفيقي المتحدث جواري.

– في ذلك الوقت، الخامس عشر من أكتوبر منذ سنوات ثلاث. بدأت العمل على مشروع خاص بي استلزم مني وقتًا، مجهودًا، وتركيزًا كاملاً. لم أعرف أي زميل لي في الأبرشية قد تناول موضوعًا مماثلاً، والآن بينما أنا جالس هنا لم أعد حتى أتذكر لِم



اخترت ذاك الموضوع بالذات. لكنني فعلت، تلك كانت القطرة الأولى في دلو الماء.

– عم كان الكتاب؟

سألت بعد تردد وصمتَ هو للحظاتٍ عديدة، تحرك الظل فوق قسمات وجهه الذي بدأ يغيب في الظلام مع غياب نور الطبيعة الآتي من الخارج، ثم أجاب بصوت أجش:

– الميتافيزيقا الدينية للحضارات القديمة.

قالها بثقة تامة ثم تلوّت شفتيه عن ابتسامة ساخرة تحمل ألماً، نظر لي وكأنه ينتظر ردّ فعلي الذي جاء على هيئة محاولة فاشلة للابتسام:

– الحضارات القديمة؟

– الوثنية بصفة خاصة.

– أها..

قلتها وابتسمت هذه المرة معقباً:

– الرموز الوثنية والعبادات الخاصة بها، علاقتها بالمسيحية، علاقتها بالأديان الباقية. موضوع



متشعب سيد جينينجز لكنه مثير للاهتمام.

– مثير للاهتمام نعم، لكنه سيء التأثير على عقل مسيحي.

أجاب وهو يعاود النظر إلى الخارج عاقداً أصابعه مرة أخرى، مستمداً القوة من قبضته فوق ساقيه:

– الدراسة المادية العادية كما تعلم، هي دراسة ما نستطيع رؤيته، لمسه، شمه، توثيقه والتعامل معه. في ذلك بحث الكثيرون قبلي وسيبحث الكثيرين بعدي. الآثار القديمة والممارسات التي ما زالت تُقام كشعائر بصورة دورية بعيداً عن أنظار الكنيسة دليل مادي، يمكن دراسته بسهولة. لكنني حاولت البحث عن ما هو أبعد من المادة، عالم الروح، الميتافيزيقا، الإيمان الخاص بهم ونظرتهم إلى ما خلف ذلك الحاجز الفاصل بيننا نحن البشر وبين ما هو أبعد، وجدت فيما بحثت أن المصطلح على عكس ما هو شائع يطلق على أي مجموعة ممارسة لدين آخر غير المسيحية، ليس فقط عبدة الطبيعة أو قبائل السيلت في شمال أوروبا، بل اليهود، المسلمين، حضارة مصر القديمة، الهندوسية، البوذية، آلهة الشمال، كما قلت أنت. الموضوع متشعب.حاولت التركيز على جانب واحد رأيته مشتركًا بين الجميع، رحلة الروح، ووجدت أن



جميع الديانات تقريبًا اتفقت على أن للروح وعيًا خاصًا بها وعينًا ترى ما لا تستطيع عين الجسد المادي رؤيتها. تلك العين بإمكانها كشف أسرار كل شيء، رؤية ما هو أبعد من الزمن، ما هو أبعد من الجسد. لكن الوصول لتلك المرحلة يتطلب وعيًا؛ لذا نختلي نحن رجال الدين في الأبرشية في بعض الليالي للصلاة والتقرب من اللّه. كذلك يفعل الجميع كُلٌّ بطريقته، يحاول التخلص من لباس العالم المادي وتفاصيله والبحث عن ما هو أبعد. الصفاء الذهني للوصول إلى درجة أكبر من الوعي، وبالتالي القرب أكثر من الروح والبعد عن المادة وتبعاتها.

توقف جينينجز عن الكلام لثوانٍ فحركتُ رأسي موافقًا، محاولًا ألا أتكلم كي لا أفض تسلسل الأفكار في عقله. لم يكن ينتظر مني التعقيب على كل حال؛ لأنه تابع بذات الصوت الرخيم:

– في كل رحلة وعي بكل دين هناك تشديد على احترام الطبيعة حولنا، واحترام أن هناك ما يحيا بها غيرنا وأن أي فعلٍ ستكون له بالتأكيد رده فعل من الكون، ربما في اللحظة ذاتها وربما لاحقًا لكن ردة الفعل ستأتي بالتأكيد. إن كانت إيجابية لأن



الممارس احترم الكون حوله وإن كانت سلبية لأن الممارس خرق قوانين الطبيعة.

– خرق قوانين الطبيعة؟

سألت فأوما جينينجز:

– كلما قرأت أكثر أدركت أن هناك اتفاقًا تامًا على أن رحلة الروح للوعي الكامل تقابلها حربٌ من كيانات لا نراها – بصورة عادية – لإعادتنا لعالمنا المادي، نطلق عليها في المسيحية الشيطان، يطلق عليها أسماء أخرى في ديانات أخرى، لكن بصورة عامة هي كيانات من الشر، موجودة معنا بكل وقتٍ وكل مكانٍ غير راغبة في إكمالنا ومتابعتنا لرحلة الوعي التي أخبرتك عنها.

حرَّكت رأسي من جديد فبدا مرتاحًا لأنني اكتفيت بتلك الإجابة لأنه تابَع من حيث توقف:

– المشكلة د. هاسيلياس أن قراءتي في تلك المجال لم تكن محدودة بالمعلومة التي رغبت في الوصول إليها، لأنه لم يكتب في التاريخ كتابًا واحدًا يتناول معلومة محدَّدة وكفى، كلما قرأت أكثر تشبع عقلي بتفاصيل أكبر لأن الشروح في الكتب لم تكن تتضمن فقط شرح الميتافيزيقا الخاصة



بالوثنية، أو بأصحاب الديانات الأخرى. بل بممارساتهم أيضًا، بعقيدتهم كاملة وطقوسهم كلها. الخير منها والشر الذي وجب التحذير منه لكن لسبب ما تمَّ ذِكر تفاصيل ممارسته وما يترتب عليها. قرأت كُلَّ هذا وكلما قرأت أكثر كلما أصبح عقلي مشبعًا أكثر بمعلومات لم أرغب في الخوض فيها منذ البداية، لم أرَ فقط في الأوراق طريق الهداية والوصول إلى السماء بل الطريق المنحدر للجحيم. كنت خائفًا في تلك الفترة وقلقًا لذا أكثرت من صلاتي واختلاطي بزملاء الأبرشية. كتبت كثيرًا، لليال طويلة متتالية، أصبحت المعلومات التي قرأت معي في كل مكان أذهب إليه؛ لا أدري إن كنت قد مررت بالتجربة نفسها د. هاسيلياس لكن بعد القراءة في العلوم الباطنية وعوالم الروح لا تعود تنظر إلى الطبيعة المادية حولك نفس النظرة من جديد.

– أعرف.

للحظة وددت إخباره بتلك التجربة التي ظلت تطاردني مع السيدة ماريا وزوجها، وتجارب أخرى سبقتها وكيف دفعتني تلك الأيام للبحث أكثر في عوالم ما وراء الطبيعة لكنني فضلت تركه لمتابعة حديثه.



– كل شيء مترابط، كل مادة، وكل حجر وكل زهرة صغيرة، رأيت في هذا جمال. أن أنظر إلى الأشجار والأفق عالمٌ أنّ عينيَّ ترى موجودات محدودة بينما روحي ترى المزيد والمزيد، وأنني يومًا ما – بمشيئة الرب – سواء في هذه الدنيا أو بعد رحيلي سأرى كل تلك التفاصيل وسأعرف ما لم أكن أعرف قبلًا. كنت واثقًا أن كل ما أراه وما لا أراه جميل، يحمل هيبة وقدسية خالصة لأنه من السماء، والسماء لا تأتي بقبح أبدًا. نحن البشر نصنع القبح، لكن السماء.. لا.

ثم حدثَ ما حدثَ..

تنفَّس بعمق، مُطلِقًا زفيرًا حادًا:

– أخبرني صديقٌ يومًا ما – لم أعد أتذكر موضوع النقاش بصراحة – أن كل مَن يجلس ليكتب أو يقرأ لفترات طويلة في موضوع معين مثير للاهتمام بالنسبة له، يصبح في حاجة إلى واحدٍ من ثلاث: الشاي، القهوة، أو التبغ؛ لأن القراءة كثيرًا والتركيز بصورة كبيرة ولفترات طويلة خاصة إن كان موضوع البحث خاصًا بالدين أو بالعلوم الباطنية أو بالفن، سيدفع العقل إلى التحرر من الجسد والانطلاق داخل دوامة وسيلٍ من الأفكار والتخيلات والعوالم داخل الصفحات وبين الحروف. مع فتح أبواب العقل



أكثر وتحرره بصورة أكبر وانغماسه في الكتابة يُصبِح الجسد في حاجة إلى المادة أكثر، لإبقاء العقل منتبهًا، ليس هذا فقط، بل لإبقائه موجوداً من الأساس. يمكنك تشبيه الحالة بالبالون د. هاسيلياس. العقل مع المعلومات الكثيرة والأبواب المفتوحة داخل الكتب يصبح كالبالون، منتفخًا ومستعداً للطيران إلى الأفق المفتوح لاكتشاف ما هو جديد، أو للهرب من الواقع، أو حتى لمجرد الانطلاق والطيران. نحن كائنات خُلِقَت ومعها الفضول والرغبة في المعرفة. بسبب عقولنا وأرواحنا كما تعلم؛ لذا ذلك البالون فوق اكتافنا في حاجة إلى حبلٍ يربطه بأرض الواقع، حتى لا تسقط ميتًا أو مجنونًا. الخيط هو المنبه، الشيء الذي يدفع جسدك للعمل أكثر ويجعل العضو داخل جمجمتك في حالة استيعاب لأن الجسد قد تشبع بالمادة، قد أصبح في حالة شرب أو هضم أو تدخين. وبالتالي سيصبح جزءٌ من العقل مربوطًا بتلك الحاجة المادية للجسد، فيمنحك هذا الأرض الصلبة التي تحميك من الطيران والتشتت بعيداً.

انفرجت شفتاه عن طيف ابتسامة:

– في حالتي تلك كانت القهوة والدخان غير مستحبة، فضلت الشاي، في الواقع أحببت الشاي.

في البداية كنت أتناول الشاي الأسود العادي، مضبوطًا، لا شديد الثقل ولا خفيفًا كالماء. لم أكن أشرب بكميات ضخمة، فقط ما يكفي كي أواصل وأظَلّ منتبهًا. كانت هذه هي البداية، لكن مع انغماسي أكثر في الكتابة احتجت إلى كميات أكبر من الشاي وأصبحت أشربه بصورة أكثر جنونًا. حتى بدأ جسدي يعاني من أعراض مرض منه. نصحني الطبيب إن كنت في حاجة لهذه الدرجة بأن أستبدل الشاي بالشاي الأخضر، قال إنه أخف وطأة على الجسد وأفضل للتنبيه وبالفعل فعلت. لا أدري أكان خوفًا مني على صحتي أم أن عقلي قد برمج نفسه على طاعة أوامر الطبيب لكنني بدأت أستسيغ الشاي الأخضر أكثر، أخبرني زملائي في الأبرشية أن للشاي الأخضر فوائد روحية وعقلية وكانوا سعيدين باختياري وبالطبع كنت سعيداً أنا الآخر، فمن جهة كنت أروي عطشي بمشروبٍ أستلذ به، ومن جهة أخرى كان جسدي وصحتي الروحية في استفادة. لكنني انتقلت من شُرب كوبٍ إلى كوبين، إلى ثلاث ثم خمس أكواب بين الساعة الحادية عشرة والثالثة فجراً، في الوقت الذي قضيتُه هنا، في هذه الحجرة بالذات التي نجلس فيها أنا وأنت الآن أقرأ وأكتب بهيستيرية. انتهى بي الأمر بأن وضعت غلاية ماء هنا داخل الغرفة أسفل المصباح على الجدار هناك كي أتمكن

بسهولة من القيام وإعداد الشاي ثم أعود لكتاباتي دون أن أفارق الغرفة. في تلك الأوقات انغمست أكثر في القراءة المحمومة عن الطقوس الوثنية لزيادة الوعي، ولجلب الشر على السواء. أدركت الكثير عن الكيانات القادمة من قاع الجحيم، أدركت أسماء مختلفة لهم وتاريخ وحضور وطقوس خاصة. أحيانًا كنت أصل بتركيزي لأن أشعر بأن الشيطان ذاته يجالسني في المكتب. غاضبًا من قراءتي، فضولي ليرى إلى أين كنت متجهًا.

لا تفهمني بصورة خاطئة د. هاسيلياس، لم أتحول إلى كاهن انطوائي منغمس في السواد والعزلة في ذلك الوقت، كنت اخرج لأتريض بالنهار، اقابل أصدقائي واتجه إلى المدينة كثيرًا، اتجهت إلى الأبرشية للصلاة ومساعدة والاستفادة من الزملاء هناك والقيت أكثر من قداس في كنيستي الصغيرة. كان كل شيء على ما يرام، صحيح أن عقلي كان يقدح ويعمل ويشتت في كثير من الأوقات لكنني كنت على أرض صلبة وقدماي مازالتا هنا على التراب."

صمت جينينجز لدقيقة ناظرًا إلى أصابعه المعقودة ثم تنهد متابعًا:



– ثم التقيت به، رجلٌ غريبٌ رأيته أثناء قضائي الساعات في المكتبة أبحث. أخبرني أنه رآني أكثر من مرة هناك وتبادلنا بعضَ الكلمات عن كتابتي وموضوع بحثي وأخبرني أن لديه ما من شأنه مساعدتي، مجموعة شديدة القِدَم من الكتب الألمانية باللاتينية القديمة، كوني رجل دين لن أجد صعوبة في ترجمتها بالطبع. وكان مسرورًا بالسماح لي بالاطلاع عليها وتناول ما أشاء من السطور والمعلومات منها. سمح لي بالزيارة ومطالعة الكتب وكتابة كل الهوامش التي أريد. لكن في مكتبته الخاصة لأن الكتب قديمة وحالتها لا تسمح بالانتقال من يدٍ ليدٍ خارج المكتبة. وافقت فورًا واصطحبته إلى مكتبته في منزله، كانت بالمدينة، بعيدًا عن ريتشموند وعن المكتبة العامة. في الواقع كانت مكتبة الرجل الخاصة بعيدة تمامًا عن أي شيء أعرفه بالمدينة، في منطقة لم أذهب إليها قبلًا. قضيت هناك ساعاتٍ مُطوَّلة أطالع الكتب، لم يقاطعني بل لم يمانع حين عرض عليَّ مشروبًا بأن يصنع لي كوبًا واثنين من الشاي الأخضر الخاص بي، كان ألذ من أي مرة شربته فيها، صنعه بنفسه – لا أدري كيف لم ألاحظ هذا في حينها – لكنَّ الرجل لم يكن لديه خادمٌ، لم يكن بالمنزل أحدٌ سوانا. أخيرًا بعد انقضاء عدة ساعات كنت مغيَّبًا فيها داخل الأوراق، اكتشفت



أنني قضيتُ أكثر من الوقت اللازم في المكتبة الخاصة وأنني تعديت الساعة المفترض بي العودة فيها لمنزلي، اعتذرت من الرجل لكنه رحَّب بي وبعودتي في أي وقتٍ وخرجت. لم أجد أيَّ عربةٍ خاصة تقلني إلى هنا فقررت أن أستقل العربة الكبيرة المشتركة العامة عالمًا بأنني سأكون آخر من ينزل منها لأن محطتي هي الأخيرة، لم يمانع السائق طبعًا.

تنهد جينينجز ثم تابع:

– في ذلك الوقت بدأ الشفق يحل، الركاب خرجوا واحداً تلو الآخر تاركين العربة فارغة. كان المكان هنا أكثر ظلمة من الآن د. هاسيلياس، لا أدري إن كنت قد لاحظت لكن على بداية الطريق هناك أربع من شجرات الحور شديدة الضخامة التي امرت بتشذيبها أو قطعها بعد ذلك الحادث، مازالت هناك لكنها اصغر الآن وأكثر تشذيبًا، على كل حال لم تكن هكذا وقتها. ألقت بظلمة دامسة على العربة السائرة فوق الطريق وأنا داخلها وحدي. كنت مستنداً إلى مقعدي أنظر إلى الخارج حين لمحت في نهاية العربة، على الجهة المقابلة لي تمامًا وجوار النافذة الصغيرة المطلة على السائق والأحصنة، نقطتين لامعتين بقوة، لفت ذلك



المشهد انتباهي فحرَّكت رأسي لأنظر هناك، لم أرَ تحديداً ماهيتهما في الظلام لكنَّ النقطتين بدوتا كأزرار أو أحجار صغيرة من تلك التي يلعب بها الأطفال على الأرصفة، أزرار زجاجية، أحجار زجاجية صغيرة، لا أدري لكنها كانت بعيدة عن بعضها البعض حوالي إنش، وعكست ضوءاً أحمر قويّا. عاودت النظر إلى الخارج متعجبًا ماذا كانت الأحجار الصغيرة تعكس في ظلامٍ يومٍ كهذا، ثم عاودت النظر إلى الداخل من جديدٍ ولم أرَ شيئًا بإمكانه إلقاء ضوء أحمر على الحجرين في نهاية العربة. بدأت أشعر بالقلق خاصة وأن الطريق ما زال طويلاً – حوالي ميل – ومع حركة العربة لم تنطفئ النقطتان أو يتغير موضعهما. ثم تحركت العربة فوق أحد الوهدات بقوة أكبر كثيراً فتحركت النقطتان معًا، إلى مكان آخر في العربة، المسافة بينهما ظلت كما هي، قوة النور فيهما بقيت كما كانت، اللون الأحمر الغريب كجمرتين من نار.

توقف جينينجز عن الكلام لثانية مانحًا إياي فرصةً لاستيعاب ما يقول ثم عاد يتابع:

– أقرب تشبيه يمكنني وصف المشهد به بأن جمرتين علقتا بمعطف كان يتلوى حرّا كشبح داخل السيارة المظلمة، معطف أسود طويل، لم أرَ



تفاصيله في الظلام لكنَّ حركة الجمرتين معًا أعطتنا إيحاء بأنهما مترابطتان بشيء ما. ثم استطال هذا الشيء – أيًّا كان – فجأة حتى صار قريبًا من سقف العربة، ثم عاد ليصغر ليصبح قُربَ الأرض، ثم اختفى تمامًا. لو لم أكن فضوليًّا ذلك اليوم ربما ما كان حدث ما حدث، لكنني كنت شديد الفضول لمعرفة أين ذهبت الجمرات أو الأزرار المشتعلة تلك؛ لذا تحركت قليلًا بعيداً عن مقعدي كي يصبح بإمكاني رؤية الممر بين الكراسي البعيدة عني، حيث اختفى الضوء. ورأيته مرة أخرى قرب الأرض لكنني ما إن حركت رأسي أكثر حتى تحرَّك وكأنه يبتعد عني. ثم استطال من جديد وأصبح ثابتًا فوق أحد المقاعد في مقابتلي في الصف المقابل تمامًا لكن على بُعد حوالي ثلاثة كراسٍ عني. كنت جالسًا على الكرسي في تلك اللحظة، مائلاً بجذعي إلى الممر ورأسي مشدود لأرى ما هذا بالضبط. شعرت برجفة في جسدي ثم بدأ الشعر في مؤخرة عنقي ينتصب. كانت تلك إشارة لكنني تجاهلتها.

ارتجف جينينجز لحظيًا وهو يتابع:

– ثم مرت العربة جوار مصدر ضوء، ومن الضوء النافذ إلى الداخل استطعت تمييز الحدود الخارجية



للجسد الجالس هناك، كان ضخمًا في الطول لكن رفيعًا وصغيرًا في العرض، مال الطريق يمينًا ومعه تحركت العربة، ليصبح الضوء المنسل من النوافذ أكبر، وبفضله ميزت العينين، ما اعتقدته في البداية جمرتين صغيرتين أو كرتين من الزجاج لم تكونا سوى عينين، أطلّتا بلون أحمر وبتعبير غاضب وساخر من وجه قرد، مال بجذعه وبرأسه بحيث يماثل وضعي تمامًا. كان قردٌ أسود بعينين حمراوين جالسًا أمامي.هبط قلبي فورًا وسقط بعيدًا، بعيدًا إلى الأرض. اختفت العينان الحمراوان فجأة بعد أن رأيتهما فعُدت إلى كرسيَّ مرة أخرى جوار النافذة وأنا أرتعد.

فتحت فمي في تلك اللحظة لكن جينينجز حرك رأسه نفيًا، مشيرًا لي كي لا أقاطع:

– الخاطرة الأولى التي ضربت عقلي هي أنني واهمٌ وأنني مُرهَقٌ، لكنني عرفت أن ما رأيت كان حقيقيًا. الخاطرة الثانية كانت ساذجة لكنها جاءت على أيّ حالٍ، ربما كان الحيوان القبيح مِلكًا لأحد الركاب ونسيه داخل العربة؟، لكن لا قرد كان بهذا الشكل ولا الحجم، ولن يصطحب أحدٌ قردًا ثم ينساه داخل عربة!! انكمشت في مقعدي مرعوبًا، محاولًا التحديق للخارج كي أحصل على ما سماه عقلي



"جزءٌ من الواقع" بعيداً عما رأيت، أغمضت عيني للحظاتٍ وأنا أتنفس محاولًا تهدئة نفسي، ربما هو الإرهاق، اليوم كان طويلاً وقراءتي أثّرت على أعصابي. لكن ما إن فتحت عيني كان هناك، على المقعد أمامي مباشرة، جسده واضح هذه المرة، أو شِبه واضح، مذبذب كما لو كان رمال تشكلت على هيئة جسد، لكنه جسد قرد، قرد ضخم كامل النمو بحجم بشري جالس على المقعد في مواجهتي وعيناه جمرتان حمراوان ينظر لي بغضبٍ دون أن يتحرك.كدت أصرخ، لكنني ابتلعت صوتي، حاولت ألا أتحرك، ألا أثير حفيظته، لكنه لم يتحرك وبقي مسمراً يراقبني حتى شككت أنه موجود. لا أدري لمَ فعلت ما فعلت لكنني وجهت مظلتي نحو صدره، ربما لأتأكد أنه موجود، ربما كانت حركة لا إرادية. توقعت أن أشعر بالجلد العاري المشعر على مقدمة المظلة وحينها سأصرخ فعلًا، لكن ما حدث كان أسوأ، نفذت المظلة مباشرة عبر جسده دون أن يهتز له جفنٌ.

توقف جينينجز عن الكلام لحظة وفرك عينيه بإصبعين في وهنٍ ثم تابع:

– انطلق مني أنينٌ حادٌّ وضعيفٌ وأنا أسحب المظلة لألقي بها جواري، توقعت أن يهاجمني لكنه لم



يتحرك، فقط تحولت تعبيرات وجهه من الصمت والغضب إلى السخرية. ثم وكما ظهر فجأة بدأ يتراجع داخل الكرسي نفسه، لينفذ كالطيف عبر الكرسي إلى الكرسي الذي يليه، ثم التالي، ثم اختفى. بقيت عيني مسمرة على النقطة التي اختفى فيها ثم أشحت بنظري بسرعة أفتح النافذة كي أعب الهواء البارد في الخارج لأمنع نفسي من التقيؤ، الموجودات في الخارج ستحميني، جزء من الواقع. لكنني ما إن أعدت بصري إلى الداخل حتى عاد مشهده لعقلي وأدركت أنه كان حقيقيًا وأنني لن أتمكن من السيطرة على انفعالاتي أكثر فأخرجت رأسي من النافذة وصحت بالسائق أن يقف.خرجت مسرعًا ومرعوبًا من العربة، نقدت السائق مالَه بيدٍ ترتجف، وانطلقت أركض كما لم أركض قبلًا متجهًا الى بيتي. لن أنسى نظرة السائق في تلك الليلة ما حييت، كانت المرة الأولى التي يتحول فيها تعبير وجه شخصٍ أمامي من احترامٍ لرجل الدين الكبير، إلى القلق من احتمال أن يكون الشخص أمامك مجنونًا.

بدا جينينجز متألمًا وهو يختم كلماته:

– كانت المرة الأولى التي يُنظر إليَّ فيها كمجنون، ولم تكن الأخيرة بعد تلك الليلة.

الفصل السابع

الرحلة: المرحلة الأولى

– هلاوس بصرية؟

سألت جينينجز باحترام فنظر لي بريبه متسائلاً، تابعت بنبرة هادئة:

– هذا ما فسَّر به د. هارلي ما رأيت، بعد الحادث. أليس كذلك؟

لم يجب جينينجز عليّ فورًا وعوضًا عن الرد نهض متقدمًا إلى زجاج الجدار، ناظرًا إلى القمر المكتمل في الخارج والذي حلّ ضوؤه الفضي البارد محل شمس المغيب الدامية. مسربل بالسواد عقد جينينجز يديه خلف ظهره ورفع رأسه لينظر إلى السماء صامتًا ومتعبًا. حين تكلم أخيرًا جاء صوته مصبوغًا ببرودة القمر ذاتها.

– هل زرت قريبًا أو صديقًا متوفيًا في المقابر ليلًا من قَبل د. هاسيلياس؟

رفعت حاجبيّ دهشة من السؤال لكنني أومأت إيجابًا، وحين تذكرت أنه لا ينظر لي قلت مجيبًا

بصوت واضح:

– بالتأكيد فعلت، مَن منا لم يفعل؟

تنفس بعمق ثم تابع كلامه معقبًا على ردي:

– بالضبط، مَن منا لم يفعل؟. في فترةٍ ما كلنا قام بمثل هذه الزيارة لقبر حبيب، قريب، أو صديق دُفن ورغبنا بتذكُّره أو الحديث معه أو الشكوى إليه. وهناك في أرض القبور كثير من الناس رأوا حركة بطرف أعينهم، ظِلًّا مظلمًا يختفي بين أشجار، أو يستطيل من خلف شاهد قبر. في أحد مراسم الدفن – كنت حاضراً هناك – صرخت امرأة وسقطت فاقدة الوعي بعد أن قالت وأقسمت إنها رأت شيئًا ما يتحرك بطرف عينها بين الأشجار، كانت شديدة الاقتناع بأن ما رأته هو ملك الموت أو روح قريبتها المتوفية حديثًا. كانت شديدة الاقتناع د. هاسيلياس.

التزمت الصمت حتى التفت لي أخيرًا لكنه بقي واقفًا:

– طبيبي العزيز، أنا رجل دين، لست مشعوذاً في مسرح أو دجالاً متجولاً في خيمة سيرك. أعرف الفرق بين الهلاوس البصرية وبين ما هو أبعد من هذا.



ربما قد يتشكك الرجل العادي أحيانًا لكنني رجل كنيسة، صاحب كتاب ومبدأ. وبالتالي لا أقفز إلى استنتاجات بهذه السهولة، خاصة حين تتعلق بأمر روحي أو ظاهرة مما وراء الطبيعة.

تنفست بعمق ناظرًا بدوري إلى الخارج وأنا أستمع إليه كما لو كنت منومًا، صوته الهادئ البارد خدر عقلي فلم أجد بداخلي القوة أو الإرادة الكافية للتعقيب على كلماته، انتظرت بصمت فقط.

– ما رأيته تلك الليلة داخل العربة لم يكن هلوسة بصرية، كان حقيقيًّا تمامًا كما أنت حقيقي ماثل هنا أمامي.

لمحت شبحَ ابتسامة على جانب وجهه حين نظرت إليه، كان ساخرًا وهو يتابع:

– إلا بالطبع إن لم تكن أنت الآخر حقيقيًّا، أو أي شيء مما هو حولي حقيقيًّا، لو كان كل هذا حلمًا ربما حينها يكون د. هارلي على حق. على أي حالٍ دَعني لا أذهب بفلسفتي بعيدًا ولأعود لرواية الحكاية الأصلية؛ تلك الليلة خرجت من العربة راكضًا، مبتعدًا عن المشهد المرعب لجسد القرد الأسود في داخلها، ثم توقفت بعيدًا على طرف الطريق أراقب العربة وسائقها يختفيان عن الأنظار

بعيداً إلى ظلمات الليل. تلفّتّ حولي مرعوبًا أكثر من مرة، متوقعًا أن أرى الكائن البشع مرة أخرى لكن لحسن حظي لم أرَه، لم أجده هناك حولي في أي مكانٍ ومن جديد لجأ عقلي لنظامه الدفاعي وأقنعني بأن ما رأيته كان هلوسة، وأنني فقط في حاجة لبعض الراحة.

أبعدت نظري عن جينينجز، متأملًا العالم خلف الزجاج بصمتٍ، متخيلًا كل كلمة يحكيها وكأنها تدور أمامي الآن حالًا وهو يواصل الحكي:

– كان بيتي، هذا البيت الذي نحن فيه الآن، على بُعد عدة خطواتٍ منّي، حوالي مئة أو مئتين خطوة لا أكثر، وبالتالي بدأت في السير، مراقبًا المدخنة المنبثقة من بين الأشجار في البعيد، القمر لم يكن مكتملًا ليلتها لكنه ألقى ببعض الضوء فبدّد الظُّلمة حولي نوعًا. تلك هي مشكلة الحياة في مكان خارج المدينة كهذا الذي أنا فيه الآن، قلما تجد مغيث حين تحتاج أو ضوء حين ترغب في الاسترشاد به. لكنني سرت مهتديًا بالضوء الشحيح ومتجهًا إلى بيتي، تصنع اقدامي أصوات حفيف بالتراب وتتجسد انفاسي في غيمات صغيرة امام وجهي؛ لعلك في طريقك للحضور إلى هنا بصحبة خادمي قد لاحظت الجدار الحجري الصغير

القائم على الطريق، لا أعرف مَن بنى هذا الجدار ولا أعرف السبب الذي منعه من إكماله لكنني في أيامٍ كثيرة اعتبرته سورًا أو مسندًا أجلس للراحة عليه كونه قصيرًا – بالكاد يصل إلى خصري – ومتين البنيان، الأعشاب والشجيرات الصغيرة خلف السور، الممتدة من الطريق إلى أمتار قليلة أمام هذا المنزل لم تكن مشذبة وقتها، كانت عالية، قريبة من طولي شخصيًا وسرعان ما بدأت أتوتر شاعرًا بأن شيئًا ما سيخرج منها للانقضاض عليّ في أي لحظة الآن وفي الظلام ليجرني ميتًا مضجرًا بالدماء إلى الداخل حيث لن يراني أحدٌ من جديد. كانت أعصابي متعبة ونفسي ضعيفة، وبالتالي أسرعت خطواتي نحو المنزل، لم أسمع حفيف أو حركة للأعشاب أو خطوات خلفي لكنني فجأة توقفت مشلولًا، بشعر منتصف على ساعدي وعنقي، لأنني شعرت ببرودة تجتاجني فجأة مع عينين تخترقان رأسي. كان هناك من يراقبني من خلفي.

توقف عن الحديث لحظة وظننت أنني رأيت أصابعه ترتجف ثم تابع :

– التفتُّ ورأيته، رأيته من جديدٍ. لم يكن وسط الأعشاب ولا على الطريق خلفي. كان فوقَ الجدار. بجسد ضخم تام السواد وعينين كجمرتين تراقبان



حركتي في صمتٍ. استطال جسدُه كثيرًا حتى كان ينظر لي بدونية من الأعلى. شعرت بمنظور النملة، بالقط المحاصر في صندوقٍ. وسقط قلبي أميالًا. لم أصرخ بالطبع لكنني التفتُّ بعيداً عنه وواصلت السَّير وبداخلي عرفت أنه يتبعني، سيتبعني إلى المنزل، كان ذهابي لمنزلي خطرًا. فتوقفت من جديد وتوقف هو الآخر، حين التفت رأيت أنه صار أصغر حجمًا، مستنداً إلى ذراعيه وساقيه وجالسًا فوق السور يراقب فقط. إن تحركت تحرك معي، إن توقفت توقف مثلي. تحركت هذه المرة بخطوات أسرع لكن في الاتجاه المعاكس، إلى المدينة. مررت به وقاومت حتى لا أنظر في وجهه مباشرة ولم ألمح حركة الجمرتين اللتين هما عيناه لذا عرفت أنه لم يلتفت لكنه كان يراني. لم أرغب في إثارة حفيظته وحافظت على هدوئي خوفًا من أن يهاجمني في أي لحظة، لكن قلبي كان يدق بعنفٍ وقوة طوال الوقت، شعرت بالشلل والعجز. واستمر القرد في الحركة خلفي.

رفع جينينجز أصابعه بهدوء لينقر على الزجاج البارد أمامه، وهو يستكمل حديثه:

– لا أعرف كيف أصف لك الشعور د. هاسيلياس، مهما قلت سأعجز عن الوصف بدقة لكن هل فكرت

ولو للحظة من قبل ماذا لو بدأت تستوعب وجود ظلك خلفك؟، وشعرت به ينظر إليك وهو يتبعك؟، ظلك الخاص الذي هو جزءٌ من كيانك؟. هل أنت قادرٌ على تخيُّل مثل هذا الشعور. حسنًا هذا هو ما شعرت به طوال الوقت. أسرعتُ في سيري وشعرت به يتبعني، التفتُّ ورأيت أنه بالفعل يتبعني، يصغر ويتذبذب ثم يستطيل ويطفو، كان يقترب مني كثيرًا ثم يبطء احيانًا فيصير بعيدًا. تجاهلته وأكملت سيري داعيًا ان تمر أي عربة من هنا، أي عربة أو أي شخص أو كلب حتى، لكن الطريق كان مهجورًا تمامًا كالصحراء. اقترب القرد الأسود مني حتى كدت أقسم إنه يتنفس خلفَ رقبتي، حتى هذا اليوم لا أعرف كيف شعرت بنظراته تقترب وتبتعد دون أن أراه ودون أن أشعر بأنفاس أصلًا لكنني أدركت أنه شديد القرب مني، التفتُّ جزئيًا فوجدته هناك، أصغر حجمًا بكثير كطفل. كان قد اقترب مني كثيرًا الآن وسار خلفي شِبَه ملاصقٍ لساقي. حتى خفت أكثر من مرة أن أتعثر به لأسقط. لم أرغب في تخيل ما سيحدث لي لو سقطت. ماذا سيفعل بي؟، في تلك اللحظات أدركت تمامًا أن ما أمُرّ به ليس هلوسات ولم يكن مجرد إرهاق وأن ذلك الشيء الذي يتبعني موجود فعلًا، حاضر معي فعلًا. لسبب لا يعلمه إلا اللّه. توقفت عن المسير فجأة متوقعًا أن يصطدم بي،



لكنه لم يفعل، توقف هو الآخر في اللحظة ذاتها. ثم –ودون أي تردد– استدرت وانطلقت راكضًا إلى المنزل. لم أحاول النظر خلفي لأرى إن كان هناك، لم أفكر إن كان خادمي بالبيت ليفتح لي الباب، لم أتوقف لالتقاط أنفاسي رغم أن صدري بدأ يحترق وجسدي بدأ يتألم بقوة. واصلت الركض والهواء البارد يلطم وجنتي حتى وصلت إلى المنزل، إلى الباب الخشبي الطويل، استندت إلى الألواح الباردة ألتقط أنفاسي دون أن أقوى على الالتفات، أغمضت عينيّ لثوانٍ، لدقائق، ثم انفلتت حسابات الزمن مني فلم أعد أعي كم من الوقت قضيت هناك.

تنهد جينينجز:

– لكنني اعتدلت أخيرًا بعد أن هدأت ضربات قلبي ونظرت خلفي، توقعت أنه اختفى ولا أدري لم كنت غبيًا لأتوقع أنه اختفى. لم يختفِ، كان هناك. على بُعد حوالي سبعة أمتار مني، بجسدٍ في نفس طول جسدي تقريبًا وعين محدقة. بلا تعبيرات ولا صوت. كان يقف هناك ويراقبني فقط بصمت. كدت أتقيأ، دارت الدنيا أمام عيني فعدت لأستند إلى الجدار مرة أخرى وقد أغمضت عيني. لم أرغب في تصديق ما أرى، بالطبع قرأت على مدار حياتي كما فعل الجميع عن "الهلوسات البصرية"، عرفت كيف



تتحول أحيانًا بفعل المرض من مجرد هلوسات مسالمة تأتي وتذهب إلى هلوسات مستديمة قد تدفع صاحبها إلى الجنون أو الإيذاء. جلست من قبل مع أطباء وتحدثنا في فلسفات ومواضيع شتى كانت الهلوسات واحدة منها. بحق اللّه حتى مجلس الإبرشية تحدث عن الهلوسات في محاضرات الفرق بين المرض النفسي والمس الشيطاني. حدثت نفسي من جديد أنني قرأت كثيرًا في الفترة الماضية عن تلك الأشياء والجوانب المظلمة من العالم حتى أصبح عقلي مستعداً لاستقبال أي وكل شيء. لم أكن غبيًا، أنا رجل دين ولست مجنونًا لأصدق أن قرداً بجسدٍ ضخمٍ كهذا قد ظهر فجأة من العدم ليراقبني، ليتبعني، ليتحرك في إثري كظلي. الأطباء كلهم أجمعوا على حقيقة وجود "الهلوسات البصرية"، النظريات الفلسفية تحدثت عنها ووضعت إثباتات لها، الدين هو الآخر فسرها وأثبت وجودها. ما أعاني منه الآن لم يكن سوى اضطراب لعقل عليل، اضطراب وقتي سيذهب لحاله وسيختفي ما إن أحصل على بعض الراحة. ضحكت من نفسي وأنا أحاول الحديث داخل عقلي ومنطقة ما رأيت وما أشعر به، هل كنت أصدق ما أفكر فيه؟، بالطبع لا. بالضبط كحال أي مسكين يقع تحت قبضة الشيطان فيحاول وضع كل شيء في مكانه المادي ليدعم نفسه ويطمئن



عقله بأن كل شيء على ما يرام وأن تلك الأشياء تحدث للغرباء فقط، لا لي. كان القرد هناك، وبقي هناك حين فتحت عيني. لم يتبدد كأي هلوسة طبيعية.

صمت جينينجز من جديد لثوانٍ، يستجمع الكلمات في عقله قبل أن يعاود الكلام بنبرة أضعف:

قررت قضاء الليلة وحدي في منزلي رغم أنني كنت خائفًا مما قد يحدث لو بقيت هنا معه. في البداية راودني هاجس العودة إلى المدينة ولو مشيًا، سأبحث عن مكان لقضاء الليلة، أو مسرح لحضور أي عرض عشوائي من شأنه تبديد انتباهي قليلًا.لكنني كنت خائفًا، خائفًا منه ومن ضعفي، خائف من رؤية أحد، من الاختلاط بالناس، من الذهاب للمدينة، من رؤية الشوارع والبيوت والأضواء والتأكد من أن ذاك الشيء هنا بالفعل، وأنه ليس مجرد وهم من صنع عقلي. كنت خائفًا من نفسي؛ لذا قررت أن أبقى وحدي بالبيت وليحدث ما يحدث. فتحت الباب بضعفٍ، بأمل في أن أستدير مرة أخرى لأراه قد رحلَ، لكنه ما إن فتحت الباب حتى تحرَّك بتؤدة نحوي، ككلب أو حصان يتحرك بثقة بعد رؤية بيت صاحبه. أسرعت إلى الداخل وأغلقت الباب خلفي لكنني عرفت في تلك اللحظة أن لا بابَ ولا

جدار سيمنعه من الدخول وأنني ما إن مررت بالغرفة الأمامية في طريقي إلى هنا حتى أصبح هو الآخر داخل المنزل في إثري. لم أشرب أيّ قطرةٍ من الشاي هذه الليلة، أخرجت سيجارًا وبراندي مع الماء، أقنعت نفسي بأن عليّ التركيز على جسدي المادي للحظة. ربما إذا انشغلت به سيشتت عقلي بما يكفي ليختفي ذلك الشيء من أمامي. جلست هنا، بالضبط حيث تجلس أنت، أدخن وأراقب الموجودات بالخارج، أفكر في أشياء لا علاقة لها ببعضها البعض لكنها غير مترابطة، مشتته، لم أرغب في التركيز على موضوع بعينه حتى لا أسمح لعقلي بالانتباه من جديد.لم أستسغ طعم البراندي أو السيجار ولم أكن معتادًا على الدخان لكنه كان ضروريًا تلك الليلة من أجل سلامتي الخاصة. حانت مني التفاته عشوائية إلى الطاولة في نهاية الحجرة، على يميني أمام الباب المغلق. قبل أن أراه عرفت أنه هنا.كان أصغر حجمًا بكثير مما كان في الخارج، مجرد قرد عادي بحجم أي قرد طبيعي ممن نراهم في عروض الشوارع مع الغجر، أسود اللون تمامًا كالفحم لكنه واضح تمامًا في الظلام دون الحاجة إلى أي مصباح لرؤيته. كان جالسًا فوق الطاولة يراقبني، عيناه شبه مغلقتين لكن التوهج الأحمر بادٍ من أسفل جفونه. تحرك



يمينًا ويسارًا متموجًا كبندول ساعة. حركة بسيطة لكنها منومة.

أخذ جينينجز نفَسًا عميقًا وبدت نبرته في كلماته التالية أكثر غضبًا واستفزازًا:

– حركة أبقت عيني رغم عني مسمرة عليه، ظلَّ هناك يراقبني طوال الليل، كنت مرعوبًا لكنني عجزت عن الفرار منه أو اتخاذ أي قرار مفاجئ بالهرب، وهو لم يَقُم بتهديدي بل اكتفى بالجلوس هناك ناظرًا إليَّ. رغمًا عني بفعل الألم والتعب والخوف سقطت في شرك النوم لما بدا لي كدقائق. لم أحلم بشيء لكنني انتبهت مرة أخرى فزعًا، فتحت عيني غير واعٍ بمكاني أو بالزمن لثوانٍ ثم تذكرت أنني ما زلت في غرفة الرسم، ما زلتُ على الكرسي وقد سقط الكأس أرضًا وانطفأت السيجارة على الخشب البارد. النافذة على يساري كانت بلون الجليد الآن وقد بدأت الأشعة الأولى لشروق الشمس تشق السماء، الغرفة أصبحت مضاءة نسبيًا وتنهدت براحة، متوقعًا أن ما حدث الليلة الماضية كان كابوسًا ومضى. مما علمت وتعلمت من قراءاتي كلها أن ما هو قادم من عالم الشيطان لا يظهر على الأغلب سوى ليلًا، تلك الأشياء لا تنشط إلا في الليل. لكنَّ مرافقي لم يكن



مثلهم، لأنني رأيته هناك واضحًا في ضوءِ الفجر. جالسًا كما هو على الطاولة، بذات النظرة الصماء. يراقبني.أدركت حينها أن كل ما حدث واقع، ليس من وحي خيالي وأن ذلك القرد سيبقى، وأنه لم يغفل ولو للحظة واحدة بل ظل طوال تلك الساعات التي غفوت فيها بمكانه يراقبني، أثناء صحوي وأثناء نومي.لا يغفل، لا يختفي،لا ينام.. فقط يراقب منتظرًا هنا.

* * *

ابتعد جينينجز عن النافذة وعاد ليجلس، محدقًا بي بينما أحدق بالطاولة متوترًا، في عقلي دار مليون سؤال وفي عقله دار بالتأكيد مليون خاطر. لكنه أراد استكمال قصته فبقيت صامتًا، أنقل نظري بعدم راحة بين الطاولة وبينه متخيلًا.

– في النهار التالي حاولتُ الخروج من المنزل والذهاب للمدينة، أخبرت خادمي بأن يصطحبني للتبضع وزيارة بعض الأصدقاء. لاحظ نظراتي من خلف كتفه وسألني عم كان هناك أو إن كان هناك خطبٌ لكنني حركت رأسي نفيًا. لم أقل له بالطبع أن قردًا فاحم السواد بعين حمراء يجلس مباشرة خلفه، ينظر مباشرة من فوق كتفه إليَّ. اصطحبني إلى المدينة، ثم إلى المكتبة، ثم إلى المتحف،



وبعدها إلى ماري. في كل وقتٍ ولحظة كان القرد هناك يتحرك خلفي مباشرة كما لو كان يطفو، دون صوتٍ، سائرًا على أطرافه الأربعة أحيانًا وساقيه الخلفيتين أحيانًا أخرى. لم يعاود الاستطالة وبدا أنه قرر الاستقرار على حجمه الحالي، أي حجم القردة الطبيعية. ما تغير فيه أكثر من مرة كان وجهه. بدا طوال الوقت غاضبًا ومتجهمًا، متأهبًا لشيء ما لكنني لم أكن أعرف ما هو، لم يصدر أي صوت ولم يحاول مهاجمتي بأي شكل لكنه كان هناك دومًا يراقبني في انتظار لحظة ما كنت متأكدًا من أنها ستأتي لكنني كنت خائفًا مما ستحمله معها تلك اللحظة.

توقف جينينجز عن الكلام من جديد، لم يكن ينتظر مني التعقيب لكنه ظل ينقر على ذراع الكرسي بأصابعه، في محاولة للسيطرة على أنفاسه التي تسارعت ثم أكمل:

– اصطحبني القرد في رحلاتي كلها طوال السنة الأولى، في النهار، في الليل، وأنا مستيقظ، وأنا وحدي، وأنا جالس مع الجميع. أصبحت غير قادر على التنفس بحرية وأنا أشعر بأن عينين تراقبانني بهذه الطريقة، غير قادر على تناول الطعام. حتى مراقبة شروق وغروب الشمس منعها عني. كان

يتمركز حيث سأنظر تمامًا وكأنه يعرف، بالطبع كان يعرف روتيني. كان يعرف كل شيء وأصبح قادرًا بدقة تامة على مركزة نفسه أمام نظري ليعلمني أنه هنا، أنه معي ومُقتَرنٌ بي. رأيته في مراتٍ قلائل فقط يستطيل من جديد ليعبر خلال الجدران من غرفة لغرفة كأنه يدور باحثًا عن شيءٍ ما. يصير جسده أضخم مما يمكن احتماله ليتحول من قردٍ تعيسٍ إلى غوريلا سوداء كثيفة الشعر بوجه شديد العبوس، ينظر لي بكل الكراهية في الدنيا ثم يرحل.كان يرحل لأيام فجأة، يختفي حتىأظن أن حياتي قد عادت لطبيعتها، ثم ما يعاود الظهور حتى أسقط أنا مرة أخرى عليلًا. في الأيام التي اختفى فيها رفيقي الشيطاني حاولت القراءة مرة أخرى عن القرين وعن التجسدات الخاصة بالشيطان، الكيانات الجحيمية والجن. عرفت أن تلك الأشياء تتخذ أشكالاً مجسدة حسب طبيعتها ووفقًا لما ترغب في فعله بالشخص الذي كُلفت بمصاحبته. توقعت أن هذا هو الحال هنا، صار لي رفيقٌ منهم. وقد قرر التجسد في شكل قرد ضخم. لِمَ؟، لا فكرة لدي. لا أتذكر رغم كل قراءتي أنني مارست طقسًا أو نطقت طلسمًا مما قرأت بصوت عالٍ كي أستدعي مثل هذا الشيء لحياتي. لكنه كان هنا على أي حال. طوال السنة الأولى وبعد أن يعود القرد من اختفائه المتكرر حتى تنتابني نوباتٌ



فزعٍ مفاجئة، أستيقظ من نومي متعرقًا وشاعرًا بالمرض، أحيانًا أتقيأ وأحيانًا تنتابني الحمى. في كل تلك الأوقات كان يجلس بالقرب مني، ليس شديد القرب لكن قريب بما يكفي لأرى وجهه يراقبني. لو رأيته في الشارع أو بحديقة للحيوان لظننت أنه قردٌ عادي د. هاسيلياس، لكنت توجست خيفة من لونه ولون عينه لكنك كنت بالتأكيد ستعتقد أنك أمام حيوان عادي، بل بإمكاني أن أؤكد لك أنك ستظن أنك أمام حيوان ضعيف وعليل الجسد أيضًا.

بدأ جينينجز يحرك يديه في الهواء واصفًا القرد:

– هكذا بدا، ضعيف الجسد، شديد النحول والسواد. شيء واحد فقط كان مخيفًا بشكله، لا عيناه ولا لونه لكن التعبيرات التي كانت ترتسم على وجهه كلما نظرت له. كراهية عميقة، كراهية لو كانت عود ثقاب لتفحمت في لحظتها. كان ذلك الشيء يكرهني ويراقبني ويتحرك معي ويصطحبني في نهاري وليلي، لا يختفي ولا أعود أراه سوى وأنا نائم، حتى أثناء نومي كنت أراه في تسعين بالمائة من كوابيسي. في النهار كنت أراه واضحًا تمامًا بتفاصيل جسده، لم يكن جسده صلبًا رغم شكله بل كان نوعًا ما مهتزًا ومتموجًا، كأنني أرى الخلايا والذرات التي خُلِقَ منها. في الليل أيضًا



– بحق اللّه حتى في الظلام الدامس – كنت أراه واضحًا كما أراك الآن. لا فقط عيناه أو تعبيرات وجهه بل جسده بالكامل. كأن من داخله وهج يسطع عبره ليمكنني من رؤيته. أو كأنه أسود من السواد نفسه.حين كان يتركني – وقد أخبرتك أنه يتركني أحيانًا – كان هذا يتم دائمًا بنفس الطريقة، يتحول تعبير وجهه من الصمت والكراهية للاستفزاز، ثم إلى الغضب، غضب عارم. يفتح فمه حتى تصير الفجوة بين شفتيه أكبر من رأسه نفسها، يتراجع وكأنه يصرخ بصمتٍ إلى نهاية الحجرة، أي حجرة أكون فيها. يتقوقع للحظات فوق جمرات النار إن كنت قد أشعلت المدفأة أو فوق بقايا الخشب بعد أن أطفئها، الحالة الثانية كانت أكثر شيوعًا لأنني لم أعتَد النوم في الضوء وبالذات النوم في نور النار. حتى بعد ظهوره، كنت أظن أنني لو أطفأت كل شيء سيختفي. وقد كنت غبيًا في اعتقادي هذا. على أي حال كما كنت أقول، كان جسده يكبر حجمًا، يصبح غاضبًا وحانقًا ويتراجع إلى بقايا الخشب ثم يتبدد عبر المدخنة، كالرماد لكنه رماد يسقط لأعلى. في إحدى المرات اختفى لأسبوع كامل، ثم أسبوعين، ثم شهر كامل حتى ظننت أن الخلاص قد أتى أخيرًا. د. هاسيلياس لا أبالغ إن أخبرتك أنني كنت على ركبتيّ كل ليلة لساعات أناجي السماء، أدعو والمسبحة بين يدي حتى



يتقرح فمي. أرجو الخلاص مما حلَّ بي. بعد ذلك الاختفاء وقد كان الأطول ظننت أنني نجوت، ظننت أن الإجابة أتت أخيرًا وأنني أصبحت حرًا. لكنه عاد بعدها مباشرة، بذات الصمت وذات العينين. يراقبني مرة أخرى وكأنه لم يختفِ أبدًا وكأن السماء لم تسمعني أبدًا.كما أدركت أنه مُكلَّف بي في تلك السنة أدركت أن هدفَه الأساسي هو دفعي للجنون. لا شيءٍ يدفعك للجنون أكثر من رؤيتك كيانًا لا يراه أحدٌ غيرك دون حتى أن تكون قادرًا على محاربته أو الاستسلام له. كيان يراقبك لا أكثر. أدركت أن النظرة أكثر شرًا من الكلمة أو الفعل، وأن وجود عينين تتلصصان عليك طوال الوقت وفي كل دقيقة بكل ساعة لكل أسبوع وشهر، أحدّ من نصل يحز عنقك. على الأقل ستموت بسرعة حينها. لكنني الآن، الآن كنت أموت ببطء أمام عينيه الكارهتين. دون أي أمل في الحرية.

الفصل الثامن

الرحلة: المرحلة الثانية

– في إحدى المرات مررت بزقاق قديم، قبل حادث القرد بعامين. كنت بصحبة رجل دين آخر يُدعى السيد هيجانز، ومعنا كان صديق آخر. في طريقنا إلى منزل كبير الأبرشية حين علمنا بوجوده في المدينة.

تحدث السيد جينينجز كما لو كان داخل حلم، وهو جالس امامي ماسحًا جبهته بمنديل أبيض أخرجه منذ لحظات من جيب ردائه الأسود. تلاعب الضوء على قسمات وجهه والأرض خلفه حين اهتزت فروع الأشجار أمام قمة النافذة فأجفلت للحظة، لم يكن جينينجز ينظر لي ولم يلاحظ بالتأكيد لأنه لم يعلق بل تابع جامد الملامح كالموت.

– لمحت في الزقاق على ضوء أحد المصابيح شيئًا أسود جالسًا، بين صناديق القمامة والأوراق الملقاة. في البداية ظننت أنه أحد المتشردين أو البؤساء الذين يملأون الشوارع. لكن الشيء الجالس أصدر صوتًا غريبًا لفت انتباهي أكثر. كان الصوت كصوت ابتلاع، مضغ وابتلاع، كصوت شيءٍ ما لزج يلوكه فم



سمين. صوت مقزز لكنه كان كافيًا لجذب انتباهي وحدي في البداية ثم جذب انتباه رفاقي حين توقفت ناظرًا. اقتربت عدة خطوات من الزقاق لكنّ أحدَ رفاقي حذرني فجأة من الاقتراب أكثر، لم أفهم في لحظتها أو لم أستوعب الأمر فجأة كما استوعبه هو. لأنني نظرت له بشكٍّ ورأيت أن شفتيه تتحركان في تلاوة لصلواتٍ لم أسمعها بوضوح كثيرًا.

سرَتْ رجفة بجسدي بينما استمع إلى كلمات جينينجز والمشهد يتشكل في عقلي:

– ما زلت أذكر المشهد بوضوح، حين اقتربت ورأيته. كان جسد كلب مفروشًا على الأرض، ميت منذ مدة لأن رائحته كانت لا تطاق. المادة اللزجة على الأرض والتي عكست ضوء المصباح كانت دمًا بكل تأكيد. والكلب لم يكن وحده، شيء ما أسود كان جاثمًا فوقه يلوك بقايا جثته بشهوة. ارتج بدني كله للمشهد، في البداية اعتقدت أنه كلب يأكل كلبًا آخر، لكن الكلاب لا تأكل موتاها، وهذا الجاثم فوق الكلب لم يكن حيوانًا طبيعيًا ولم يكن كلبًا طبيعيّا ولم يكن جسده بأي حالٍ أشبه بجسد الكلب. لم يشبه القرد الذي طاردني بعدها لكن جسده حمل نفس الصفات، السواد التام، التذبذب،



والعين المتوهجة. رفع رأسه وانتبه لي ولم يتحرك، راقبني للحظة قبل أن يسحبني أحدُ رفقائي من ذراعي لأعود إلى الشارع وأنا أرتجف. وجواري بدأ ذاك الشيء يلوك الكلب إستمتاع من جديد.

في تلك المرة في الزقاق رأى الجميع ما رأيت، حذرني كبيرُ رجال الإبرشية حين حكيت من أن أخوض في مثل هذه الأمور أكثر مما يجب، أخبرني أننا كرجال دين أكثر شفافية من الرجل العادي، وأننا إن جذبنا الانتباه لأنفسنا سينظر الشيطان لنا بعين الفضول والكراهية. ثم لن يتركنا. أخبرني أن شوارع إنجلترا بها الكثير والكثير وأن عليّ ألا أصب تركيزي على كل شيء أجده، بالذات إن كان بلا تفسير مثلما رأيت؛ لأنني إن فعلت فلن أسلم، وفي المرة القادمة لن يكون رفاقي معي لحمايتي أو مساعدتي. بالطبع استمعت لنصيحته، لكنني لم أقابل بعدها أبدًا أي شيء غريب آخر لا في شارع ولا في زقاق حتى إنني نسيت النصيحة ونسيت الموقف. كان هذا بالطبع حتى بدأت في قراءة الميتافيزيقا، وحتى ظهر لي القرد.

توقف جينينجز عن الحديث فسألت:

– هل هو معنا الآن؟



– لا.

أجاب وهو يمسح جبينه مرة أخرى

– لم أره منذ ما يقارب خمسة عشر يومًا، لا. خمسة عشر يومًا بالضبط، كما أخبرتك؛ أحيانًا يغيب لهذه المدة أو لشهرين أو ثلاثة شهور على الأكثر. لكن أقل مدة غاب فيها كانت خمسة عشر يومًا بالضبط؛ لذا أتوقع ظهوره في أي لحظة الآن.

تنفست بعمق وأنا أنظر إلى الطاولة ثم إلى الزجاج ثم إلى جينينجز.

– اعذرني لمقاطعتك لكنني فعلًا أرغب بالسؤال. هل يكون ظهوره مصحوبًا بـ "لا أدري"، ظروف معينة؟، رائحة، تغير في درجة حرارة الغرفة؟

من جديد هز جينينجز رأسه نفيًا:

– أنت تتحدث عن الحضور الشيطاني د. هاسيلياس كما قرأت عنه في كتب المس والتلبس بالتأكيد، لكن لا. لا تغيير في درجة حرارة الغرفة، لا رائحة غريبة، لا أضواء متقطعة، ولا نار. هو فقط ليس هنا ثم هنا.



– تعني أنه ليس شيطانًا؟

– لا أعرف ما هو.

قال بصبر:

– لكن حضوره يكون صامتًا مثل وجوده، أرفع رأسي من كتابي أو أفتح عيني لأجده قد عاد فجأة فقط هكذا بلا مقدمات..”

صمت ساخرًاك

– د. هارلي أخبرني أن لدي مشكلة في العصب البصري، هل تصدق هذا؟ العصب البصري! وحين حاولت النقاش معه بالمعلومات التي أعرفها عن الطب تهرّب من الإجابة وأخبرني أنني في حاجة إلى الراحة لا أكثر. ما زلت لا أعرف كيف امتهن هذا الرجل الطب.”

بدأ جينينجز يصبح أكثر عدوانية وأصبحَتْ تعبيرات وجهه أكثر تعبًا فأعلنت بصدقٍ:

– سيد جينينجز إن كنت في حاجة إلى الراحة، بوسعي العودة في الصباح الباكر لاستكمال الحديث.

– لا..

صاح فجأة وهو ينتفض ثم عاد وهدأ:

– لا لا، أرجوك د. هاسيلياس. لست واثقًا أنني سأجد القدرة في لمتابعة الحكاية غداً، لست واثقًا أنني حتى قادرٌ على متابعتها بعد ساعات من الآن. لم أخبر أحداً بكل هذه التفاصيل من قبل، ولا حتى د. هارلي.

قطع كلماته لالتقاط أنفاسه ثم تابع:

– أنت طبيب د. هاسيلياس ورجل فلسفي وباحث، وأنا..

– أنا هنا لمساعدتك سيد جينينجز، لا تقلق.

طمأنته وابتسمت فبدأ القلق يزول من محياه شيئًا فشيئًا، عاد لينهض من جديدٍ ليدور أمام النافذة ثم عاد وجلس ثم عاد ونهض من جديد، بدا أنه يعاني ليصيغ الكلمات التي تخص الجزء التالي من حكايته، أردت طمأنته بأنّ أيّا كانت الطريقة التي سيروي بها الحكاية فسأكون هنا للاستماع.



لكنه بالطبع لم يمنحني الفرصة لأنه سبقني بالكلام:

– في السنة الأولى، كما أخبرتك كان القرد صامتًا تمامًا ومكتفيًا بالنظر لي، بإعلامي أن عينيه عليّ دائمًا، لكن بحلول العام التالي بدأت أفعاله تختلف، بدأ في جري أكثر نحو جحيمه الخاص، في البداية ببطءٍ، ثم بقوة أكبر. لم يعد يراقبني بصمتٍ من بعيدٍ. وكأنه اكتسب طاقة جديدة، أو أتته أوامر جديدة باتخاذ الخطوة التالية من خطته لتدميري. في ذلك الوقت كان رئيس الإبرشية قد لاحظ تغيُّر أحوالي، جاء لزيارتي وجلسنا معًا للحديث كما نجلس أنا وأنت الآن، هنا أيضًا في ذات الحجرة. لم أخبره بالتفاصيل كما أخبرتك بها لكنني أطلعته على أن هناك خطبًا ما بي وأنني أشك أن كيانًا من أتباع الشيطان قد حلّ عليّ ضيفًا غير مرغوب فيه. أخبرته أن أيًّا من العلامات لم يظهر لكنني كنت أراه في صحوي وفي منامي وأن هذا سيدفعني للجنون. دار جدال كبير بيننا أرجو منك إعفائي من الحديث عنه، ولأن رئيس الإبرشية رجلٌ عملي قبل أن يكون رجلَ دين أخبرني بأن عليّ زيارة طبيب للتأكد من أن صحتي العقلية على ما يرام. أخبرته بزيارتي لـ "د. هارلي" وقد بدا وكأنه قرأ استيائي فاقترح أن نذهب معًا لطبيب آخر يعرفه لاستشارة



طبية سريعة. اصطحبني الرجل الطيب للطبيب وهناك وبعد فحصي أكد الرجل على أنني على خير ما يرام جسديًا، بعض الإرهاق والضعف فقط لكن صحة نظري وصحتي الجسدية والعقلية كانت مؤكدة. وبالتالي تأكد رئيس الأبرشية أن ما أخبرته به كان صحيحًا وقرر مساعدتي بطريقته.

ساخرًا من جديد تابع جينينجز:

– أخبرني أن عليّ الذهاب إلى ووررويكشاير، وممارسة بعض الأعمال الخاصرة بالكنيسة. أعطاني عددًا كبيرًا من المهام لإنجازها هناك في الأبرشية التي كنت تابعًا لها، وفي الكنيسة الرئيسية هناك. أخبرني الرئيس أن هذا من شأنه صرف انتباهي عن معاناتي وغمس نفسي بالعمل سيساعد من رفع روحي المعنوية وإيقاف عقلي عن التفكير.ووجودي في ارض مقدسة كأرض الكنيسة والأبرشية التابعة لها سيساعدني على التخلص من أي شر محيط بي، إن كان ذاك الشئ الذي يطاردني من صنع الشيطان فسيذهب، سيتبدد أو سيتجلى وحينها سيتمكن زملائي من التعامل معه.كان جالسًا طوال ذلك الوقت خلفنا، يراقب حديثنا ويستمع الينا وخفت أن أخبر رئيس الأبرشية بوجوده معنا في تلك اللحظة وفضلت

الصمت.تبدد القرد كما يفعل دائمًا في تلك الليلة عبر المدخنة ولم اره في صباح اليوم التالي، ظننت في ذلك الوقت أن الاقتراح قد اخافه ودفعه للهرب لكنني ما ان جمعت حاجياتي وركبت العربة التي ستقلني إلى الأبرشية حتى عاد للظهور، اضخم هذه المرة، جالس بوضعية بشرية تمامًا في الكرسي بمواجهتي، صامت وغاضب.حاولت تجاهله طوال الطريق، تلوت الصلوات بهمسات متتالية وانا انظر إلى الخارج وحينها فعل ما لم يفعله قبلًا. تحرك مقتربًا مني حتى سار وجهه على بعد سنتيمترات قليلة من وجهي، تجعد جلد ذراعي مثل جلد اوزة وانا انظر مباشرة في عيناه، شعرت بأنني احترق من الداخل وبان رأسي يدور. لم يهاجمني لكنه عبس ثم تلوى فمه وانفتح فجأة عن صيحة غاضبة بلا صوت، صرخت بذعر وانا اتراجع في مقعدي فتوقفت العربة فورًا وجاء السائق يسأل إن كان هناك خطب ما.كان القرد قد ابتعد وجلس كما كان كالتمثال امامي في تلك اللحظة، ولأصرف السائق أخبرته بأنني على ما يرام وانني ظننت حين تحركت العربة بقوة فوق حجر اننا دسنا ارنب أو وعل أو أي حيوان بري. اكد لي بأننا لم ندهس أي كائن حي فشكرته ومضى وهو يظن بعقلي الظنون.

رافقني القرد حين هبطت من العربة وحين ولجت ارض الكنيسة. كان يمشي بثقة خلفي على ذراعيه وساقيه ورأسه مرفوع وجسده مقوس كظهر قط. لكنه بدا شديد الغضب والعنف كما لم اراه قبلًا.رافقني إلى حجرتي وجلس هناك في أحد الأركان يراقبني بغضب.

اغمض جينينجز عينيه بتعب وقد توقف عن الكلام، ثم عاد وتكلم وهو ينظر إلي بلا تركيز :

– حاولت في ذلك النهار مباشرة اشغالي دون أي تأخير لكنه ظل يصطحبني ويدور خلفي في كل مكان اذهب إليه، حتى داخل ساحة الكنيسة. لكن هناك لم يتبعني بل التصق بالجدار وبدأ بالدوران، إلى اليمين واليسار، يتسلق الجدار ثم يسقط ليفترش الأرض. كان غاضبًا وثائرًا وظننت ان بقائي هنا فترة أكبر سيساعدني أخيرًا للتخلص منه، لكنني كنت متعبًا وبدأت أشعر بالألم الشديد فوق كتفيّ وظهري، وكأن أحدهم يرجمني بالحجارة كلما حاولت تلاوة الصلوات أكثر. زحف القرد على الأرض أمامي، زحف كالثعبان ثم جاء أمامي مباشرة ووضع كفيه فوق يدي. وحاولت قدر ما أمكنني ألا أصرخ ألمًا. وكأن مئات السكاكين انغرست في لحمي د. هاسيلياس، مئات السكاكين الحادة.



سقطت من الألم والرعب وفقدتُ الوعي. وحين أفقت وجدت أن رفاقي قد حملوني إلى غرفتي. لم أرَ رئيس الأبرشية ولم أنتظر بل فررت من هناك على عجلٍ وكأن الشيطان ذاته يطاردني.. لأن الشيطان ذاته كان بالفعل يطاردني..!

* * *

تابع جينينجز:

– عدت إلى المدينة وبحثت مرة أخرى عن د. هارلي، لم يكن أمامي أي خيار آخر الآن سواه. حكيت له بعض مما حكيت لك ورجوته أن يفتح عقله لاحتمالية حدوث ما هو أكثر من الهلوسة البصرية، أريته العلامات الحمراء كالكي على يدي فتفحصها ثم افترض أنني أنا مَن فعلتها بنفسي، هل تصدق!! لم يرغب في تصديقي، وضع كل شيء فوق شماعة "العصب البصري" ورفض تمامًا رؤية أن في الجسد أبصارًا أخرى وأعصابًا أخرى واحتماليات أكبر من مجرد مرض عضوي ومادي.. لكنني كنت يائسًا وسلمت نفسي له تمامًا. أخبرته أن أيًّا كان ما سينصحني به سأفعله، إن أخبرني أن عليَّ اللجوء للتنويم المغناطيسي سأفعل.. سأتناول أكبر قدرٍ ممكنٍ من الدواء حتى للتخلص من مرافقي؛ رغم حنقي وغضبي على الطبيب هارلي إلا أنني ليس

بوسعي إنكار أنه أولى حالتي اهتمامًا كبيرًا جدًا، ربما بسبب الفضول. لكنه عاملها كما لو كانت حالة هلوسة تمامًا دون وضع أي احتمالية أخرى. حاول مساعدتي وأنا شاكر لهذا على الأقل. ولفترة وجيزة بالفعل، حوالي ثلاثة شهور لم أرَ القرد مرة أخرى أبدًا، كانت تلك أكبر فترة غاب فيها حتى بدأت أتفاءل أكثر وأتأكد أنني تماثلت للشفاء. زال حنقي على د. هارلي بل إنني اتصلت به وشكرته وأكدت أنني أتعافى، لم أعد أعاني أو أرى أي شيء وأصبحت قادرًا على تناول طعامي بصورة طبيعية من جديد وبرؤية الجميع مرة أخرى وباستنشاق الهواء دون الخوف من وجود عينين تراقبان مؤخرة عنقي. قررت العودة إلى كنيستي لممارسة مهامي الدينية التي أحب، عدت رجلًا جديدًا متفائلاً ومنتظرًا لغدٍ أفضل، وبالفعل دون يوم تأخير واحد صعدت إلى العربة مع زملائي متجهًا إلى كنيستي. طوال الطريق إلى الكنيسة أبقيت رأسي خارج نافذة العربة، أبتلع أكبر قدر ممكن من تفاصيل الطبيعة. من النهار الذي بدا مبهجًا وملونًا أكثر مما رأيت في سابق حياتي كلها. البيوت الصغيرة المتباعدة بدت مبهجة بقممها الحمراء والدخان الخافت الصاعد من المداخن، الأشجار بدت أكثر زهوًا واخضرارًا أسفل السماء الزرقاء التي سبحت فيها السحب مبتعدة دون أن تشكل غيمة واحدة وكأنها تشاركني

احتفالي بخلاصي.كنا قد اقتربنا حين رأيت قمة الكنيسة الشامخة وسط السماء، سمعت خرير الماء واستنشقت رائحته العذبة حين ظهر الجدول على جانب الطريق بين الأشجار، راقبت الأوراق العائمة فيه والصخور الهادئة على ضفتيه، كان كل شيء جميلاً، كل شيء حيّا، كل شيء مبهجًا.

بدا الغضب واضحًا على قسمات جينينجز وهو يتابع:

– ثم أشحت بنظري عن الطريق لأعود وأستقر داخل العربة مستنداً إلى ظهر مقعدي، ورأيته هناك من جديد. جالسًا في مؤخرة العربة يحدق في ساخراً: "هل ظننت حقًا أنك تخلصت مني؟" كانت تعبيرات وجهه تقول بوضوح أسفل عينيه الملتهبتين. تلاشى كُلُّ أملٍ من داخلي فجأة وصحت في السائق أن يتوقف ثم تركت العربة لأخرج ورأسي يدور، جلست على جانب الطريق ووجهي بين يديّ شاعرًا بكل أسى الدنيا. لا، لا فائدة، لن يذهب. لن تعود حياتي كما كانت، لا يسعني الخلاص. كنت غبيًا ومغفلًا حين تعلقت بأملٍ زائفٍ. ما زلت عبداً له، ما زلت أسيرًا لتلك الأعين والنظرة الكارهة ود. هارلي لم يفعل أي شيء، أنا من ظن أنني حرٌّ. لمت نفسي ود. هارلي والكون وكتابي وكلّ ما أمكنني



لومَه، رغبت بالبكاء رغم أنني لم أبكِ منذ أن كنت في العاشرة من العمر، حبست دموعي وارتجفت وخرج زملائي ليستفسروا عما بي، حاولوا مساعدتي دون أن يعلم أيٌّ منهم ما خطبي حتى، ثم حثوني على مواصلة الطريق فركبت معهم العربة مرة أخرى، عالمًا أن القرد ما زال هناك. لكن لم يكن أمامي خيار آخر.

* * *

متعبًا تابع جينينجز وهو يحدق في نقطة ما خلفي:

– رافقَني الشيطان كما في السابق طوال لحظات وجودي في الإبرشية، يفتح فمَهُ ليصرخ بغضبٍ أحيانًا دون صوتٍ، يراقبني وهو يدور بالحجرة أحيانًا أخرى، كان غضبه في ازديادٍ وخفت أن يُقدِم أخيرًا على فعل ما. لكنني في ذات الوقت كنت يائسًا بما يكفي لأتمنى أن يقدم على قتلي، ليريحني مما أنا فيه. أثناء وجودي هناك انتابتني حمى بشعة، بقيت رقيد الفراش عدة أيام أهلوس، لم يفلح الدواء في تخفيف الحمى ولم يفلح اعتناء زملائي وأصدقائي بي في عوني. لم يدرك أحدٌ أن ما أعاني منه ليس مرضًا عضويًا وبأن ذلك الشيء أيًا كان قد بدأ يتغذى على صحتي الجسدية بعد أن فرغ من صحتي العقلية. كنت أراه بعد مغادرتهم، في ضوء



المصباح الوحيد في الحجرة وهو جاثمٌ على صدري، ينظر إلى عجزي بسخرية، تلك كانت اللحظات الوحيدة التي تتحول تعبيرات وجهه فيها من الغضب إلى السخرية. كان يرى ضعفي وقلة حيلتي ويعلم أنني أنزلق شيئًا فشيئًا لهاويته وكان سعيداً بهذا. خطته كانت في طريقها للنجاح وقد كنت رغم كل تعاليمي غيرَ قادر على المقاومة أو خوض الحرب. حين بدأت صحتي تتحسن قليلًا – جسداً لا عقلًا – نصحني رئيس الإبرشية بالإشراف على قداس في الكنيسة بعد أن طال غيابي عنها، ولأول مرة في حياتي أتوسل له أن يعفيني من تلك المهمة، لم أظن طوال فترة خدمتي في بيت الرب أنني سأفرّ من الكنيسة بسبب شيطان بدلاً من أن يفر هو من أمامي، وهو ما فكَّر فيه رئيس الإبرشية أيضًا لأنه بدلاً من أن يعذرني استشاط غضبًا. أخبرني أنني رجلُ دينٍ في المقام الأول وأنَّ عليَّ –حتى لو كان كافة شياطين الجحيم في إثري– ألا أستسلم لهم ولا أستسلم لضعفي، أخبرني أن محاولة فراري من أرض اللّه ستجلب لي الخزي والوبال. كيف أُطلق على نفسي اسمَ رجل دين؟، كيف أقول إنني سلاح الرب على الأرض إن كنت غير قادر على محاربة شياطيني الخاصة.



كدت أعلق لكنّ جينينجز رفع يده لي كي يمنعني وهو يواصل:

– أوقعت كلماته الرعب في نفسي، كان محقًا بالطبع لكنه لم يكن يعرف معاناتي. من لم يختبر الجحيم يسهل عليه السخرية منه، لم يسخر رئيس الأبرشية بالمعنى الحرفي لكنه قلل مما كنت أخاف منه، شدد على كلماته لي بأنني إن لم أقدم القداس فلن يعود مرحبًا بي هنا في الكنيسة، لست منفيًا بالطبع لكن لن يعود مرحبًا بي هنا لأنني لن أتمكن من تقديم المساعدة للناس ما لم أتمكن من مساعدة نفسي أولًا. اللّه يساعد مَن يساعدون أنفسهم، من يسعون إليه، قالها بثقة. وبالتالي وافقت على قيادة القداس رغم أنني كنت أعلم مسبقًا أن الشيطان القرد لن يتركني وشأني هذه المرة. ارتديت لباس الكهنوت في النهار التالي، لم أرَ القرد في أي مكان طوال الليلة الماضية وطوال النهار حتى ظننت أنه ذهب في إحدى نوبات اختفائه، بالطبع سيعود لكنني تمنيت أن يعود لاحقًا على الأقل وأن يتركني وشأني الساعات القادمة أثناء القداس. هبطت إلى الكنيسة وانتظرت حضور الناس ثم بدأت المراسم، فتحت الكتاب على المذبح وبدأت برواية الآيات الوعظية والاستماع إلى همسات الناس وصلواتهم،

لدقائق عديدة بدا كل شيء كما كان، أنزلت السكينة والأمل على قلبي وارتفعت نبرة صوتي بثقة أكبر وأنا أتابع قراءة الآيات الوعظية من الإنجيل ذي الغلاف الجلدي أمامي. ثم رفعت عيني عن الكتاب فرأيته.

جاءت كلمات جينينجز التالية بنبرة جعلت الشعيرات على ساعدي تنتصب:

– كان منتصب القامة، لا منحني كالقرد، بل منتصب تمامًا بجسد شديد الطول وشديد النحول ذي أطراف تكاد تخترق الأرض، فاحم السواد، بأمارات غضب عارمة. وقف في منتصف أرض الكنيسة يراقبني من الأعلى، ينظر لي غاضبًا وساخرًا وكارهًا. لم يتحرك لدقائق لكن صوتي بدأ يرتبك، بدأت أتشتت عن القراءة وأنا أحدّق فيه مرعوبًا.الحضور في الكنيسة بدأوا هم الآخرون يتلفتون حولهم، باحثين عما أنظر له في تلك اللحظة. لم يرَ أيٌّ منهم أي شيء بالطبع وبدأت الهمسات بينهم تعلو، مع ارتباكي وتعلثمي في الكلام بدأ القرد ينكمش، ليعود لشكله الأصلي، بذات طول البشر العادي، بجسد أكثر انتفاخًا وبانحناء إلى الأمام وظهر مقوس. تحرك متجهًا نحوي وذراعاه وقدماه ترجان الأرض، رجات لا أعرف كيف لم يشعر بها غيري.

قلبت الأوراق أمامي بسرعة، بسرعة قدر ما استطعت. وبدأت بتلاوة آيات أخرى لم أعتَد تلاوتها ولم يكن مسموح لي بتلاوتها إلا بإذن. لكنني كنت خائفًا، مهتز الثقة ويائسًا. لم أتلُ بصوتٍ عالٍ لكن بصوت واضح:

"باسم الأب، الابن، والروح القدس.. آمين"

بدأت همسات من هم حولي تعلو، شعرت باقتراب أحد زملائي منّي، سمعت خطواته خلفي مباشرة لكنني تابعت:

"فليعلو الرب ولتأت مشيئته، وليتفرق أعداؤه من أمامه كما يتبدد الدخان، كن عونًا لنا يا رب السماء في الحرب ضد أعدائك، ضد جيوش الظلام، ساعدنا على تخطي خطايانا، كن عونًا لنا في الأرض كما في السماء.."

قبل أن أتمكن من استكمال التلاوة طرقَتْ يدا القرد الأوراق أمامي بقوة حتى اندفعت متراجعًا، غطى الإنجيل أمامي بيديه ومال بجسده ورأسه نحوي ناظرًا لي بغضب وتحدٍّ. انفرج فوهه عن أسنان لم أرها قبلًا، أنياب كانت تلمع كالأنصال وتابع اقترابه، يزحف جسده فوق الأوراق كثعبان أسود برأس قرد. سقطت على ركبتيَّ عاقدًا يدي أتلو



الصلاة، وبدأت الكلمات القلقة تنساب من فم جميع الحضور في الكنيسة. انحنى زميل لي عليّ محاولًا مساعدتي لكن كيف؟، كيف سيساعدني وهو لا يرى ما أراه. لم أستطع الاستمرار، لم أتمكن من مواجهته ولا مواجهة الشيطان أمامي. كنت ضعيفًا والرئيس كان محقًا. لن أتمكن من مساعدة غيري، أنا حتى عاجز عن مساعدة نفسي.

فررت من المكان وأنا أنوي ألا أعود، لم أذهب لجمع أشيائي من غرفتي بالإبرشية حتى بل انطلقت في أقرب عربة مبتعداً عن المكان تمامًا تاركًا الناس المشتتين والزملاء المأخوذين خلفي. تركت حياتي السابقة التي علمت أنها لن تعود كما كانت أبداً وتركت شجاعتي وإيماني المطلق والأرض المقدسة الطيبة والجدول والبيوت الصغيرة على الطريق لأعود إلى الظلام والسخام في لندن. تركت كل شيء عرفته سابقًا خلفي، كل شيء ماعدا القرد الشيطان.

الفصل التاسع

الرحلة: المرحلة الثالثة

– بدأت حياتي منذ تلك اللحظة تتخذ منحنى آخر تمامًا، لأن القرد الشيطان لم يعد يكتفي بالنظر إليّ من وراء الجمرتين في عينيه أو الاقتراب مني والنعيق غضبًا. بل صار يتحدث لي، يتحدث بكل الذنوب والمعاصي والشهوات ما تخيلته منها وما لم أعرف حتى أنه موجود.

لم يعد بوسعي الركوع والصلاة إلا وكان هناك خلف أذني يبث سمه إلى داخل رأسي حتى أفقد تركيزي وأنهض، لم أكن أتلو كلمات الرب إلا وجلس فوق الأوراق ينظر لي بتحدٍّ، يراقبني عالمًا أنني أضعف من أن أضع حدًّا لوجوده. صرت كاهنًا للجن سيد هاسيلياس، وصار هو – لا الرب – شغلي الشاغل حتى لم يعد أمامي خيار آخر.

إما أن أضع حدًّا له أو حدًّا لحياتي، وهو ما عرف بيقين أنني أفكر فيه، وهو ما بدأ يوجه وسوسته نحوه.

– عذرًا للمقاطعة سيد جينينجز.



قلتها متسعة العينين، محاولة رؤيته في الغرفة التي صارت أكثر ظلمة بعد أن بدأ موضع القمر في الخارج يتغير، صار شحوب جينينجز أكثر وضوحًا بعد أن أصبح ضوء القمر مباشرة في مواجهته، شعرت لوهلة أنني أجلس قبالة شخصٍ ميتٍ، روح معذبة قادمة من البرزخ وهائمة داخل هذه الجدران.

صنع عقلي لعبة غريبة لوهله متسائلاً، ماذا لو لم يكن السيد جينينجز موجوداً من الأساس؟، ماذا لو كنت جالسًا هنا أتحدث مع طيف معذب لرجل أخذ حياته الخاصة بعد أن سحبه الشيطان إلى جحيمه؟، هل كان هذا ممكنًا؟، لا أعرف. لم أرغب في التطرق بتفكيري أكثر في هذه النقطة.

– وددت أن أسألك كيف، كيف بالضبط يتحدث إليك؟، أخبرتني أنه يوسوس. هل كان ذلك بصوت إنسان كما نتحدث أنا وأنت الآن؟ أردت سؤالك عن هذا الذي تعنيه بـ "يتحدث".

فتح فمه ليجيب لكنني واصلت مشيرًا إلى أنني لم أنتهِ بعد.

– لكن قبل أن تجيب أرغب في سؤالك إن كنت تفضل إضاءة بعض الشموع حولنا، القمر بدأ في البهتان وذلك الضوء الشبحي البارد لن يكون



مفيداً لحالتك. أستطيع رؤية سوء الوضع سيد جينينجز ولن أكذب عليك. أستطيع رؤية تعبيرات وجهك المعذبة بوضوح وأظن أن هذه الأجواء حولنا لن تساعد بأي حال في تحسين حالتك.

– د. هاسيلياس.

قالها بضعفك

– لم يعد الضوء مهمًا لي، لم يعد يشكّل فارقًا. لا ضوء الشموع ولا ضوء القمر ولا حتى الظلام الدامس. لم يعد لدي مشكلة مع الليل ولا النهار لأنَّ لا فارق بينهما. إن رغبت بأن أنهض لإحضار الشموع من أجلك فسأفعل. لكن لو كنت ترغب فيها من اجلي أنا فصدّقني، لن يُحدِث هذا أي فارق.

كان ينسحب من أمامي إلى فجوة لا أعرف إن كنت سأتمكن من إعادته منها، بدا وكأنه يتهدل وكأن جلده يتساقط ليذوب على الأرض. بؤسه كان مريعًا ومرعبًا وكنت أتألم، خائفًا من ألا أستطيع المساعدة بعد كل ما رواه وفي نفس الوقت خائفًا من أن يكون محقًا فيما يراه.

لم اعد اعرف ما رغب فيه فعلًا، أن يكون جينينجز مجرد مريض بالوهام، حينها سأكون قادرًا على



محاولة تقديم المساعدة لكنني لست واثقًا من النتيجة، أو أن يكون محقًا تمامًا فيما يرى، وحينها سأتأكد من عجزي التام وسيضيع الرجل.

أخبرته بأنني أردت الشموع من أجله وليست لي، وبالتالي طالما هو غير مهتم فأنا لا أهتم أنا الآخر، أخبرته بأن يتابع إن وجد داخله الرغبة في المتابعة.

– أنت شديد الطيبة د. هاسيلياس، شديد الطيبة.

قالها بأسى مسترسلًا في حديثه:

– أعرف كيف هو صعبًا أن تجلس هنا في مواجهة رجل لا تعرف إن كانت حكايته كلها من صنع عقله المريض أم هو يرى فعلًا شياطين من عالم آخر. لكنني أؤكد لك سيدي، أنه كما الهلوسات البصرية حقيقية، الشياطين أيضًا حقيقية. أعرف أنك تعلم هذا بالفعل لكنني رغبت في الإفصاح عنه على أي حال.

رمش جينينجز بعينيه أكثر من مرة، مغيّرًا وضعية جلوسه ليصبح على حافة المقعد وهو يتحدث بذات النبرة الواهنة:



– حين شخَّص د. هارلي حالتي وأخبرني بأن المشكلة كلها في عصبي البصري، أخبرته بما أخبرك به الآن، أن العصب البصري كما هو حقيقي هناك البصيرة وهي أيضًا حقيقية. بوسعك أن تتخيل الطعام يعبر شفتيك لتلوكه بين أسنانك ثم ينسحب إلى معدتك، كذلك بإمكانك أن تتخيل قدح اللبن ينساب من بين شفتيك إلى جسدك ليأخذ منه الدم احتياجه ويتحرك بالحياة عبر شرايينك إلى أطرافك وعقلك. مثل هذا تمامًا هي الشياطين، سكان الجحيم. بإمكانهم استدراجك من أعصابك بهدوءٍ وبطءٍ وبخطوة تلي الخطوة حتى تفقد سيطرتك على نفسك، ثم تفقد قدرتك على التفرقة بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي، ثم تفقد القدرة على المقاومة، ومعها يبدأ الأمل في الاختفاء حتى يصبح من السهل عليهم أن يبتلعوك إلى باطن جهنم. كما أن عملية الهضم حقيقية، هضم روح البشر أيضًا.. حقيقة.

صمت كلانا لنحو دقيقة ثم تابع جينينجز:

– سألتني د. هاسيلياس إن كان القرد يتحدث لي في صلاتي بصوت البشر والآن اجيبك بأن لا، لا يركع جواري ويوسوس لي بصوت بشري أو شيطاني، كلماته تخرج مباشرة من بين شفتيه إلى داخل

عقلي كصور وأصوات. يرسم لي كل شيء وكأنه يضع شاشة من الصور المتتالية أمام عينيّ، أراها أكثر وضوحًا من رؤية العالم حولي نفسه.

أرى نفسي أرتكب شناعات لا حصر لها، أرى الدماء على يدي وأشم رائحتها للحظة وأشعر بها لزجة ومقززة بل دافئة وزكية الرائحة. أرى نفسي أسرق، أسرق ثم أقتل ضحاياي، ثم أصرف أموالي على معاصٍ أخرى.

يريني جسدي في زنا، مع إناث، مع رجال، مع حيوانات حتى. يريني ما لا أرغب في تذكره كي لا أتقيأ، يريني ما جعلني أكره نفسي وأشعر بالقذارة والبشاعة حتى إنني صرت غير قادر على الركوع أو ممارسة شعائر دينية أو حتى النطق باسم الرب في صحوي.

بدأت أيأس من الخلاص ومن عون السماء وبدأت شيئًا فشيئًا أنسحب، محاولًا ألا أختلط بأحد وألا أرى أحدًا، شاعر بأنني صرت خطرًا على نفسي وعلى مَن هُم حولي.

قاطعته هذه المرة لأقول:

– لكنك تعلم –كما أعلم– أن الجانب المظلم لا يملك اليد العيا علينا سيد جينينجز.



حدق في بصمت فتابعت واثقًا:

– أعرف أنك قَلِقٌ من تلك الكلمات التي يحفرها شيطانك في رأسك، من تلك الصور وتلك الأفعال المشينة التي تفكر بها، لكن عزيزي السيد جينينجز أنا عرفتك رجلًا وقورًا ومحترمًا وتلك الوسوسات ما هي إلا وسوسات مهما بدت كريهة وقذرة. أنت رَجُل دِين سيدي لكنني قارئ وباحث في المقام الأول ولذا عليك أن تصدقني حين أخبرك بأنني أثق في قدراتك.

كاد يقاطعني من جديد لكنني أشرت له:

– رجاء، رجاء سيد جينينجز اسمح لي بالمتابعة قبل أن تكمل لأنني أشعر بالغضب الشديد لأنك تظن مثل هذه الظنون بنفسك. سيدي المحترم لكُلٍّ منَّا شيطان قرين، كما قرأت أنت وكما قرأت أنا في مكتبك وأنا أعتذر عن تطفلي لكنني أجدني مضطرًا لمواجهتك بأنني قرأت هوامشك.

أجل أنا أيضًا مؤمن تمامًا بأن لكل منا شيطانًا قرينًا يوسوس لنا بكل فعل مشين تتخيله، ليفتت قدرتنا على المقاومة ويدمر أرواحنا حتى ننسحب إلى الجحيم معهم، كل بشر خُلِقَ يملك شيطانًا أو اثنين أو حتى عشر كهذا، لكن عليك أن تتذكر



سيد جينينجز بغض النظر عن أنك رجل دين، أنت رجل تملك جسداً ماديًا، وأيًا كان ما يوسوس لك فهو يظل مجرد وسوسة ما لم يقدم جسدك المادي على التنفيذ.

توقفت لالتقاط أنفاسي ثم تابعت قبل أن يتكلم:

– الغشاء بينك وبين ذلك العالم ربما أضعف قليلًا أو ربما حدث ما كسره نوعًا ما فأصبح بوسعك أن ترى ما خلفه، هذا بشع ومؤلم أجل لكن عليك ألا تلوم نفسك فأنت لم ترتكب تلك الخطايا، الوسوسة فقط أوضح بعقلك سيدي.

ابتسم السيد جينينجز لحماستي لكنّ ابتسامته لم تكن كما تمنيت ولم أرَ أيّ اطمئنان فيها، كانت أنفاسي متسارعة الآن فتراجعت بمقعدي لأهدأ وظل جينينجز يراقبني لثوانٍ معدودة قبل أن يقول أخيرًا:

– عرفت حين التقيتك للمرة الأولى بمنزل ماري أنك رجلٌ عظيم د. هاسيلياس، على عكس الكثير من الناس ورغم كل ما حكيته لك أنت لم تفقد الأمل فيّ بعد.

– عليك أنت الآخر ألا تفقد الأمل سيد جينينجز.



– هذا أصعب قليلًا مما تتخيل د. هاسيلياس.

صمت للحظة وهو يشيح بنظره عني قبل أن يتكلم أخيرًا:

– بدأت الوسوسة تنتقل من مجرد الصور إلى الحث على الفعل د. هاسيلياس؛ لذا أخبرتك في خطابي بأن الأمر طارئ لا يحتمل التأجيل. لم تبدأ هذه المرحلة إلا منذ فترة صغيرة، في الأسابيع الماضية حين كنت بصحبة أقاربي باحثًا عن النجاة في شروبشاير. هناك تغير سلوك القرد الشيطان تمامًا من مجرد بس الصور والسموم بعقلي إلى حثي على فعل أشياء أخرى. وكأنه وجدَ بابًا ونفذ إلى داخله ثم تشبَّث هناك رافضًا الرحيل، بدأ يحثني بإصرارٍ غريبٍ على الإيذاء، لا ارتكاب الفاحشة أو المعصية بل بالإيذاء، سفك الدم، القتل، ثم أخذ حياتي الخاصة. لا أدري ما الذي حرّكه بهذه الطريقة ليحاول التخلص مني بعد أن كان مكتفيًا بإضعافي وإذلالي لكن بدا لي أن الجزء النهائي من خطته قد حان وعليه تنفيذه قبل أن يتركني أغرق في الجحيم نهائيًّا.

هل كان ذاك بريق الدموع في عينيّ جينينجز؟، أم أن اللمعة التي رأيتها لوهلة من ألاعيب الضوء لا أكثر؟، رغبت في السؤال لكنني في نفس الوقت



لم أود إثارة تحفّظه فبقيت على صمتي مستمعًا إلى كلماته حين تابع:

– في تلك الأيام في شروبشاير بدأت الوسوسة بالقتل، بدأت الصور ترتسم في عقلي مع خطط كاملة عن إشعالي النار في المنزل الذي كنت مقيماً فيه، عن إغراق ابن أختي الرضيع في النهر ومراقبة فقاعات الحياة ترحل مع أنفاسه الأخيرة عبر فمه. في إحدى المرات خرجت بصحبة ابنة أخي وأصدقائها وأصدقائي في رحلة لاستنشاق هواء الطبيعة في شروبشاير، الطبيعة هناك جميلة كما تعلم وألحّ الجميع عليّ كي أنضم إلى الفريق لتغيير الأجواء قليلًا، كي أشعر بحال أفضل. قبل خروجي بلحظات كدت أن أرفض، كدت أن أعود أدراجي وأختفي داخل غرفتي. لِم ستسأل؟، لأن عقلي ما انفك يرسم صورًا لكل فردٍ من المجموعة ميتًا بين يدي.

ارتجف جينينجز قليلًا قبل أن تخرج الكلمات التالية من فمه:

"تخيلت ابنة أخي مشقوقة الرأس، صديقي الشاب مذبوحًا من الأذن للأذن، تخيلت من حشَتْ فمه بالتراب حتى مات مختنقًا ومن سلخت رأسه فجأة حتى مات ألمًا غير قادر على الصراخ. كان الجميع حولي يرى الطبيعة والأشجار والسماء وأنا أرى



الجثث، يستنشقون الهواء المعبق بأريج الأزهار والنسمات القادمة من النهر، بينما أنا أتنفس الدم والعطن. الشيطان كان مرافقًا لي طوال الرحلة كظلي، يمشي جواري تمامًا. بجسده الأسود وعينيه الحمراوين. لم أعد في حاجة للنظر نحوه لأعرف أنه يراقبني، أصبحت مدركًا تمامًا لحركته معي من دون حتى الحاجة إلى النظر في اتجاهه. تأخرت بضع خطوات عن المجموعة وبقيت صامتًا حتى لا أعكر مزاجهم وفي ذات الوقت حتى لا أفقد سيطرتي وأقوم بإيذاء أحد. بقيت معي ابنة أخي خلف المجموعة، رفضت تمامًا تركي وحدي. للنساء حدسٌ غريبٌ د. هاسيلياس. مارثا لم تكن بالطبع تعرف أيَّ شيءٍ نهائيًّا عما أعاني منه، لكنها كانت تعرف أنني لست على ما يرام وأنني أعاني. تعبيرات وجهي فضحتني طوال الوقت. أدركت أن هناك خطبًا ما لكنها لم تكن تعرف ما هو ولم تحاول إزعاجي بالسؤال بل فضلت مساعدتي فقط دون أن تثقل عليَّ.

صمت جينينجز فجأة، عابثًا بلا تركيز بالخيوط في ثوبه، ثم نظر لي. نظرة أودعها قدرًا من اليأس لم أرَه على قسمات رجلٍ حي قبلًا:

– مررنا قرب نهاية الغابة في ذلك النهار بمنجم قديم للفحم، كان قد تم إغلاقه منذ سنوات عديدة حتى سرت حوله الإشاعات والقصص، هناك بالذات استشاط القرد جواري وصارت حماسته وقوته أبعد من أي حد وصل له قبلًا. هناك شيء ما خطأ بالمنجم، شيطان آخر أو طاقة أو أيًّا كان الكيان الجحيمي الذي يسكنه. أدركت أنه يغذي شيطاني الخاص وبدأت مقاومتي تتراجع كثيرًا. أطَلْتُ النظر إلى المنجم، أطلت النظر أكثر مما يجب لإحدى الفجوات الممتدة ما لا يقل عن مائتين وخمسين قدمًا نحو الأسفل. شعرت بأنني أهوي رغم ثباتي في مكاني، شعرت بالراحة إن استكان جسدي مكسورًا غارقًا في الدم هناك في الظلام والبرد. احتلت الفكرة عقلي كله، سأحصل على الخلاص أخيرًا من آلامي كلها، سيحزن الجميع لكنهم سينسون يومًا ما وسيعودون لممارسة حياتهم بصورة طبيعية. لن يواجهوا مشكلة طالما يتذكرونني كشخصٍ طَيِّبٍ. رئيسي في الإبرشية بعد أن يعرف بأمر موتي سيسامحني، سيتأكد أنني كنت عليلًا وسيتم تكريمي هناك بعد رحيلي. كل شيء سيصبح على ما يرام، انتحاري في تلك اللحظة هو أفضل خيار واتاني منذ ثلاث سنوات كاملة، حتى ديدان الأرض ستستفيد من جسدي المسجى في الفتحة، والذي لن يتمكن



أقاربي بالطبع من استعادته من المنجم المغلق. بدأت أخطو إلى هناك، منومًا تمامًا، مبتسمًا كما لم أفعل منذ سنين. كنت واقفًا فوق الفتحة مباشرة حين شعرت بأصابع مارثا الرقيقة حول ذراعي وهي تسألني إن كنت على ما يرام.

ارتجفت في تلك اللحظة حابسًا أنفاسي وأنا أراقب وجه السيد جينينجز بينما يتابع:

– أخبرتها بأنني بخير وأنني أرغب في البقاء وحدي بعض الوقت فقط، فرفضت. حاولت الإصرار على رغبتي وألححت عليها أن تنضم إلى الأصدقاء في المقدمة، أخبرتها بصوت عذب وبكلمات حلوة أنني سأكون بخير وأنني بدأت بالفعل أشعر بالتحسن شاكرًا مرافقتها واللّه والطبيعة. لكنها لم تفلت ذراعي، ولم تتحرك. مارثا عرفت بحدسها أن شيئًا ما على وشك الحدوث في اللحظة التي تترك فيها ذراعي وتتحرك خطوة واحدة بعيداً، لم ترَ الشيطان القابع جواري يحدق فيها بكراهية لكنها شعرت به. شعرت ولم تتكلم لكنها رفضت تماما ونهائيًا تركي. بقيت جواري تلح عليّ بمرافقتها إلى أن عاد جميع الأصدقاء إلى النقطة التي كنا نقف فيها. لولا وجودها في ذلك النهار معي لكنت ميتًا الآن.

تنهد رجل الدين وهو يلتقط أنفاسه، ثم عاود الكلام:

– بعد عودتنا للمنزل تركت مارثا لأنزوي في حجرتي، علمت لاحقًا بالصدفة أنها خاطبت ماري موضحة كيف كانت قلقة عليّ وعلى صحتي. عرفت أيضًا أنها بطريقة ما ودون أن تظهرني كرجل انتحاري قد حثت جميع أقاربنا على معاملتي بلطفٍ أكبر والتقرب مني أكثر في اللحظة الراهنة لأنني في حاجة لوجودهم جواري. لم يرغب أحدٌ في تركي وشأني بعد ذلك النهار، كان هذا بالطبع لطفًا منهم، لولاهم لما كنت حيًّا. لولاهم لما تمكنت من مقاومة نفسي، لكنني كنت متعبًا، وضعيفًا، ومستسلمًا. رؤية كيف يهتمون بي ويخشون عليّ كان مؤلمًا أكثر مما لو تجاهلوني أو خافوا مني لأنني كنت طوال الوقت وفي كل لحظة أتخيلهم موتى على يدي. كان عليّ الفرار من هناك فورًا د. هاسيلياس، لم يعد بإمكاني البقاء معهم لحظة واحدة إضافية لذا حدثت خادمي سرًا وطلبت منه تجهيز العربة وفي وسط الليل بينما الجميع نيامًا رحلت فورًا دون ترك أي رسالة تشير إلى مكاني الحالي. أتيت إلى منزلي هنا هاربًا وشاعرًا بالخزي والعار ومعي رفيقي الشيطان، الجن القرد اللعين. في المكان ذاته الذي بدأ فيه كل شيء، وددت لو



أحرق البيت بالكامل، لو أموت مصلوبًا على إحدى تلك الأشجار في الباحة. صرفت خادمي في الليلة الأولى وخرجت إلى العراء هنا. خارج هذه النافذة على هذه الأرض هناك، هناك أترى؟

كان يشير بإصبعه إلى نقطة بعيدة أمامنا، عبر الزجاج البارد:

– أعرف أن لا أحد يسكن حولي، لن يصل صوتي لأحدٍ وإن حاولت قتل نفسي هنا لن يغيثني مغيثٌ. لم أحاول إنهاء حياتي لكنني ركعت على الأرض وحاولت الصلاة، كما لم أفعل منذ شهور ولّت. اندفعت الصور والصرخات وصيحات الكراهية كلها في عقلي دفعة واحدة ما إن بدأت بتلاوة الآيات فانهرت أرضًا مرتجفًا وباكيًا. صرخت حتى تقرحت حنجرتي وفقدت وعيي هناك على الأرض الطينية، حين أفقت كان النهار قد طلع، لم يكن خادمي هنا بعد؛ لذا عدت إلى الداخل وكتبت الخطاب على عجل، وحين جاء أرسلت الخطاب إليك فورًا؛ لذا كما ترى د. هاسيلياس، لم اكن أبالغ حين أخبرتك بأن الأمر عاجلٌ وأنني قد لا أنجو لليلة أخرى، لا أعرف حتى إن كنت قد قررت المجيء غدًا أو بعد غد، لربما كنت وجدتني ميتًا، مشنوقًا أعلى السلالم بالخارج.

توقف السيد جينينجز عن الحديث وقد انحنى إلى الأمام ليخفي وجهه بين يديه، كان غير قادر على الكلام، غير قادر على مواجهتي بعينيه. شعرت في تلك اللحظة بمدى الألم الذي يغلي في صدره وأدركت أن كل خيالاتي عن مرضه كانت بالفعل أقل من الحقيقة.

الرجل لم يكن فقط يعاني من الرؤية، لم يكن يعاني من التفكير أكثر مما يجب، لم يكن يعاني من أيٍّ مما خمنت لكنه كان يتألم في كل لحظة في حياته، كان ينهار أمامي وأدركت أنني لحسن الحظ اخترت التوقيت المناسب للمجيء، من يعلم فعلًا ماذا كنت لأجد لو كنت أتيت متأخرًا.

– سيد جينينجز.

قلت بودٍّ لكنه لم يرفع رأسه، كان يتنفس بصعوبة؛ فقلت بثقة أكبر وأنا أنحني تجاهه.

– سيد جينينجز أنت لم تمت ذلك النهار في الغابة.

الآن رفع رأسه بعينين غائرتين لينظر إليَّ:

– ولم تمت ليلة البارحة أمام البيت ولا شنقت نفسك أعلى السلم هذا النهار، ما زلت هنا سيد

جينينجز.

لم يتحدث الرجل ولم أكن في حاجة إلى سماع إجابته، تابعت على أي حال وأنا أبتسم قليلًا بثقة:

– هذا يعني شيئًا واحدًا فقط سيدي العزيز، أن قوى الشر مهما كانت سطوتها هنا، فهي لا تملك السلطة المطلقة عليك، لم تمت بعد سيد جينينجز ولم تسفك الدم رغم أنك عانيت أكثر من ثلاث سنوات!!، ثلاث سنوات كاملة. تلك فترة ليست بقليلة.

– د. هاسيلياس؟

نطق باسمي متسائلًا عما أعني فقلت بثقة:

– أعني أن الربّ ما زال معك سيدي المحترم، ما زالت السماء تستمع وما زالت حياتك بين يدي اللّه لا الشيطان.

الفصل العاشر

البيت

معًا قمنا لإحضار الشموع، لإضاءة المكان وإضفاء قليلاً من الروح فيه. ساعدته في إشعال أكثر من عشر شموع بددت الظلمة الحالكة التي كانت الغرفة سابحةً فيها قبلًا. لم يبد السيد جينينجز مرتاحًا طوال الوقت لكنني جلست معه مرة أخرى ومن جديد أخبرته بالكلمات التي قلتها قبلًا.

أخبرته أنني آسفٌ لما عاناه وأنني لن أتركه يعاني من جديد، سأساعده طالما كنت قادرًا على المساعدة، أخبرته بأنني ساعدت أشخاصًا كُثُر قبلًا لكنني لم أعتبرهم أصدقاء كما اعتبرته هو، كان يستمع لي طوال الوقت بصمت تام فأمسكت بيديه لأخبره بأن الجسد هو وعاءُ الروح وأن الشيطان مهما كانت قوته، مهما كانت سلطته وسطوته فهو عاجز عن إيذاء الجسد.. جينينجز تخيل الكثير من الشرور نتيجة لوسوسة القرد، ثم وحين حاول الهرب إلى الكنيسة لم يتركه؛ لأنه لم يكن واثقًا في مقدرته لا أكثر. لم يكن مؤمنًا بأن القرد سيختفي لذا تمسك القرين الشيطاني بهذه الفكرة وبقي.



كان يحاول نشب مخالبه داخل روح جينينجز لكن الرجل بقي يقاوم، ظلَّ يحاول المقاومة ورغم كلِّ ألمٍ مرَّ به ظل يحاول الركوع والصلاة. حين ظن أن الإجابة لن تأتي ذهب إلى شروبشاير، سألته إن كان يظن أن ذهابه هناك من قبيل الصدفة ؟!، صحيحٌ أن الوسوسات زادت هناك لكن ألا يعني ذلك أن الشيطان ظن أن هناك تهديداً في ذلك البيت؟، هناك تهديد بأن جينينجز سيفلت من قبضته.

أخبرت الرجل الصامت بأن الشيطان رغم مصاحبته له إلا أنه عجز عن دفعه لتنفيذ أمره لمجرد وجود مرافقة معه، مجرد شخص واحد يهتم كان كافيًا ليتذبذب الشيطان ويبتعد. لم يكن جينينجز كاهنًا للجن كما اعتقد كما أنه لم ينهِ حياته في شروبشاير لكنه استمدَّ منها القوة على عكس ما توقع الشيطان، لذا حاول الوسوسة بصورة أكبر، ثم في النهاية استسلم واختفى. كان هذا قبل رحيل جينينجز. لم يظهر من جديد لكن الوساوس استمرت لأنها ظلت مزروعة في عقله ولأنه ظلَّ خائفًا.

ذلك الشيء تغذى على خوفه، كان يستمد قوته من ضعفه كأنه طفيل مادي.

– سيد جينينجز، سأطلب منك طلبًا.

– أي شيء، أي شيء.

قالها بسرعة وقد بدت على وجهه أمارات حياة أكثر مع ضوء الشموع فطلبت منه أن يذهب إلى منتصف الحجرة للصلاة، كرجل دين ليس في حاجة إلى الكتاب المقدّس ليصلّي، كان بوسعه فعلها هنا والآن فورًا. بدا خائفًا لكنني كنت مُصِرًا وأخبرته أن القرد لم يعد بعد وأنني هنا وأن الشمع مضاء والحياة تسري بين جدران المنزل في هذه اللحظات، أخبرته أن يحاول. بالفعل نهض، اتجه إلى منتصف الحجرة ورداء الكهنوت الأسود يتماوج بفعل ضوء الشموع ثم انحنى وبدأ في الصلاة بصوت هامس لكنه مسموع.

بقيت جالسًا بمكاني حتى حين بدأ يرتجف وقد صار صوته أكثر شحوبًا، مختنقًا بالبكاء. نهضت هامسًا باسمه بخوف لكنه حين التفت لي والدموع تغمر وجهه كان يبتسم.

* * *

افترقنا في تلك الليلة بعد أن تمكن من الصلاة أخيرًا، أخبرني مرارًا وتكرارًا أنه شاكرٌ لي لكوني عونًا وأخبرته بدوري أنني في أي لحظة يرغب فيها في حضوري سأكون على أتم الاستعداد للحضور.



سألني من جديد إن كنت أفضّل البقاء لكنني أعلنت عن حاجتي إلى العودة إلى مكتبي للقراءة بصورة أكبر والتعمق في حالته كي أتمكن من المساعدة بشكل عملي أكثر من مجرد النصيحة.

أكدت أن عليه مراسلتي فورًا في حال ظهر القرد من جديد وأنني في خلال ساعات قلائل سأكون هنا ماثلاً أمام عتبة بيته، لم يبدُ مرتاحًا كثيرًا لكنه كان أفضل حالًا مما كان عليه أول اليوم وتركني أرحل بعد أن شد على يدي بالسلام ثم اختفى خلف باب بيته.

اتجهت إلى العربة وأنا ألقي نظرة أخيرة تجاه المنزل قبل رحيلي، لكنني قبل أن أصعد إلى العربة مِلت نحو الخادم المنتظر في احترامٍ وصمتٍ لأسأل:

– ما اسمك؟

– جوناس سيدي.

– حسنًا جوناس أود أن أطلب منك طلبًا مهمًّا، بل شديد الأهمية في الواقع.

– بالطبع سيدي!!، كلي آذان صاغية.

أخبرته بأن سيده هو أبعد ما يكون عن الصحة وأن حالته سيئة جدًا. قلت له مصرًا ومشددًا على كلماتي بأن عليه الاطمئنان على السيد جينينجز كلما كان هذا ممكنًا، عليه ألا يتركه وحده مهما كان وعليه أن يسرع فورًا إلى إخباري إن جدَّ جديدٌ.

بعد أن جعلته يقطع وعدًا انطلقت في العربة إلى منزلي المؤقت في لندن فورًا. استغرق الطريق ساعاتٍ قليلة وكنت مرهقًا وبحاجة للراحة لكنني ما إن خرجت من العربة حتى أبلغت المسئول عن المنزل برغبتي في طلب عربة أخرى فورًا لتقلني إلى أحد الفنادق الصغيرة خارج المدينة، صعدت إلى غرفتي وجمعت كتبي وأدواتي كلها، العقاقير الصغيرة معي، الأوراق، وحتى السجائر. وانطلقت داخل العربة الجديدة إلى مكان محترم أعرفه خارج المدينة. الفندق كان يدعى "الأبواق" وقد كان على الرغم من صغره هادئًا تمامًا وحميمي بشكل سيساعدني على التركيز.

فور وصولي بدأت في ترتيب حاجياتي على المكتب والقراءة وكتابة ملحوظاتي كافة عن حالة السيد جينينجز، عن ما أعرفه وما لا أعرفه وما حاولت استنتاجه. أثناء كتابتي بدأت بكتابة خطاب للسيد الذي أعرفه وأثق فيه، مختص العلوم الباطنية "فان

لو"، أدركت أنني سأكون في حاجة لعونه حين أبدأ في علاج حالة السيد جينينجز. ولأن فان لو أكثر خبرة مني في العلوم الباطنية ارتأيت أن أشركه في رحلة العلاج التي قررت أنها ستستغرق حوالي ٩ شهور كاملة.

بدأت بكتابة الخطاب للرجل مع تدوين الهوامش عن الرحلة العلاجية.

"عزيزي المحترم فان لو، منذ فترة طويلة لم أراسلك وعليك أن تعذرني؛ فأنا مثلك كثير الترحال. للأسف عليَّ مصارحتك بأن الخطاب هذه المرة أيضًا ليس من أجل تبادل الحديث والأخبار، بالتأكيد أرغب في الاطمئنان على حالك لكنني في الوقت ذاته أجدني في أشد الحاجة لاستشارتك في أمرٍ مهم.

أثناء تواجدي هنا في إنجلترا خلال الشهر الماضي التقيت برجل طيب شديد النقاء من رجال الدين يدعى السيد جينينجز، بدأ السيد جينينجز بقص عليَّ حالته كما سأقصها عليك الآن في خطابي. بعد أن انتهى من كتابة حالة السيد جينينجز ستجد أنها مشابهة كثيرًا لحالتك التي عانيت منها منذ سنوات، لمرتين على التوالي.



وكما قال صديقنا الصيني القديم، ساعدت في علاجك لكن الرب شفاك.

أنا تعيس من أجل السيد جينينجز عزيزي "فان لو"، دعني أخبرك سرًا. في سنواتي الماضية قبل وبعد لقائي بك ساعدت في علاج سبع وخمسين حالة من الحالات التي حكيت لك عنها في السطور السابقة، حالات مشابهة لحالة السيد جينينجز. سبع وخمسون حالة سيد "فان لو". لا أكثر ولا أقل.

وضعت تلك الحالات تحت فئات ثلاث، "مبدئية"، "سهلة"، "ومتأخرة". أطباء كثر مثلي ومثل د. هارلي بالطبع التقوا بحالات مماثلة لكنهم صنفوها كلها تحت مسمى "هلوسات بصرية" دون أن يفكروا حتى في السماح لعقولهم بالنظر لما هو أبعد من هذا.

للأسف تلك الحالات لم تكن مجرد هلوسات، الهلوسات البصرية سهلة العلاج، كعلاج البرد تمامًا. أما هذه المشاكل الروحية فهي تتطلب إخلاصًا في العمل من نوعٍ آخر وخطوات أكثر تعقيدًا.

لكن مع ثقة بين المريض والطبيب ومع بعض التفكير والربط بين العارض والمرض سيصبح هذا



ممكنًا، لم يُخلَق مرضٌ دون علاج وكلانا نعرف هذا. لذا إن سمحت لي سيدي سأحاول ترتيب ما توصلت له في هذه الأوراق كي أعلمك بالحالة وفي نفس الوقت كي أتمكن من ترتيب أفكاري الخاصة قبل أن أبدأ مرحلة العلاج.

كما تعرف سيد "فان لو" "المخ" هو العضو الرئيسي بالجسم البشري، هو المحرك الآمر والناهي لكل شيء سواء عن طريق السيالات العصبية أو عن طريق المواد الكيميائية التي تفرزها الغدد فيه. المخ مربوط بكل شيء في الجسد عن طريق تلك المواد الكيميائية. لكنّ جزءاً من المخ وهو العقل مربوط برابط آخر، سيالات أخرى تسير مع السيالات العصبية، غير مرئية ربما لكنها تظَلّ إشارات موجودة كالضوء والصوت. لا نستطيع الإمساك بها لكننا نعلم أنها هنا.

حسنًا سيد "فان لو"، يمكننا الإقرار بأن العقل والمخ هما العضو ذاته لكن على بُعدين مختلفين، وكأن أحدهما يسبح على السطح بينما الآخر مغمور داخله، وبالتالي ما سيؤثر على السطح سيؤثر على المغمور أيضًا. من ضمن ذلك التأثير المواد الكيميائية التي تدخل مجرى الدم، الدواء، – أو في حالة السيد جينينجز – كالشاي الأخضر. ذلك



المشروب يعتبره الكثيرون مشروبًا روحيًّا لأنه آتٍ من الطبيعة مباشرة ولأنه يُحمَل عبر الدم إلى العقل دون وسيط. لا تنسَ أن رهبان البوذية أنفسهم يتجرعون تلك المادة بكميات هائلة.

حسنًا على حد علمي تلك المادة تساعد في أن يبدأ الفاصل بين العقل الواعي والعقل الباطن بالتبدد شيئًا فشيئًا، وبالتالي وكما المخ مربوط بالعينين ليسمح لنا برؤية الموجودات حولنا، العقل الباطن المغمور داخله مربوط بعين أخرى كذلك تقع مباشرة بين عينينا، فوق الحاجبين بقليل. تلك المواد الكيميائية كالشاي الأخضر أو ربما مواد أخرى كالتي يتجرعها الحشاشون. توفر لشاربها القدرة على الاستبصار، أو في كلمات أبسط إمكانية رؤية ما خلف الحجاب الذي يفصل بين عالمنا والعالم الآخر.

العقل نفسه يفرز تلك المواد الكيميائية لكن في لحظة الاحتضار، لن يضر الميت معرفة ما خلف الحجاب لكن الحيّ. حسنًا سيصبح بإمكانه رؤية الخير والشر على حدٍّ سواء وفي حالة السيد جينينجز، بعد أن تمكن من رؤية ما هو أبعد من ذلك الفاصل دون حتى أن يشعر، لمح أحدُهم



نظراته وقرر النظر هو الآخر له، ثم قرر متابعته وفي النهاية قرر إفساد حياته تماماً.

يمكنني بعد موافقة السيد جينينجز صنع تركيبة بمساعدتك وببعض المشورة منك عن المكونات لتعكس عمل الشاي الأخضر، أعرف أن أغلب من يحصل على البصيرة يصعب عليه التخلي عنها، أعرف أن البعض يراها كميزة وهبة – كثيرون ممن عالجتهم قالوا الشيء ذاته – لكن السيد جينينجز يتألم ولا أعتقد أنه سيرفض عكس مفعول الشاي وإعادة تلك العين على جبهته للنوم.

أنا متفائل عزيزي فان لو، أظن أنني سأكون قادراً على رسم البسمة أخيراً على وجه رجل الدين الطيب بعد ثلاث سنوات قضاها في عذاب مقيم. أتمنى أن تصلك رسالتي بسرعة وأن يصلني ردك. سأكون في الانتظار وحتى ذلك الوقت سأكون بصحبة السيد جينينجز، سأساعده قدر المستطاع على تقنين الرؤية حتى نتمكن من إخمادها نهائياً.

ليتني أخبرته الليلة بذلك الاستنتاج لكنني لم أكن واثقاً من أن تخميناتي صحيحة، لم أكن بالطبع أذكر التفاصيل كلها ولولا أنني قرأتها في الكتب داخل العربة لما تذكرتها، للأسف أصبحت في ذلك

السن الذي تفلت فيه المعلومات من العقل كالماء من بين الأصابع المضمومة.

على كل حال سأكون على تواصل عزيزي فان لو، وسأخبر السيد جينينجز باستنتاجي غداً وكلي ثقة في أن كلماتي ستغمره بفيض من السعادة هو في أشد الحاجة لها.

* * *

فور أن ذيلت الخطاب بتوقيعي تطلّعت إلى الساعة وجدتُها تعدّت الثانية بعد منتصف الليل، أي إنني قضيت الوقت من التاسعة والنصف إلى الثانية أبحث في مسألة السيد جينينجز. سعيد بأن ذلك الوقت لم يَضِع سدى أطفأت أنوار الحجرة واستسلمت للنوم لبعض الوقت.

في نهار اليوم التالي جمعت أشيائي كلها وانطلقت بالعربة عائداً إلى المدينة، في العربة واصَلتُ القراءة وكتابة كل الهوامش الممكنة عن التركيبات الكيميائية المحتملة كدواء لحالة السيد جينينجز، قررت صناعة قائمة كاملة من الأعشاب الطبية الطبيعية وإرسال خادم المنزل الذي أقيم فيه لشرائها ما إن أصل. ثم أحملها وأعود إلى بيت



جينينجز لأساعده بها كدواء مؤقت حتى يصلني خطاب فان لو.

لم أصل إلى منزلي حتى الواحدة ظهراً. حينها وجدت رسالة من السيد جينينجز تنتظرني على الطاولة. حملتها برهبة وأسرعت إلى الاستقبال لأسأل عنها فأخبرني المسئول أن الخادم الخاص بالرجل قد أتى وتركها هنا لي. حاول الاستعلام عن مكاني وحين عرف أنني لست هنا وأنني لن أعود حتى اليوم كان مستاء للغاية، أخبرني أن سيده كان ينتظر مني إرسال ردٍّ فوراً.

فضضت الرسالة على عجل لأقرأ التالي:

" عزيزي د. هاسيلياس لقد عاد..!!"

لم يمر أكثر من ساعة على مغادرتك وعاد إليَّ مرة أخرى، القرد اللعين، كان جالساً حيث كنت أنت جالساً. حاولت مقاومته والصلاة كما أخبرتني، حاولت تجاهله لكنه جاء هذه المرة ساخراً. أخبرني أنه لم يرحل أبداً، ولن يرحل، وأنه عرف بلقائنا. كان هنا طوال الوقت وسمع كل كلمة قلناها. أخبرني أنه سيجعل من حياة كلينا جحيماً وأنه يعرف حتى ما أكتبه عليك الآن.

لا أعرف ما عليَّ فعله سيدي أنا خائف، أرجوك تعالَ بأقرب وأسرع وقت ممكن.

سأكون بانتظارك.

المخلص دائمًا

روبرت ليندر جينينجز."

شعرت بالرعب ما إن انتهيت من قراءة الرسالة وهززتها بعنفٍ في وجه الرجل بالاستقبال وأنا اسأل بصوت متوتر:

– متى وصلت الرسالة بالظبط!!

– الحادية عشرة مساءً، الليلة الماضية سيدي، الرجل الذي أوصلها جاء مرة أخرى بعدها، جاء ثلاث مرات في الواقع باحثًا عنك، آخر مرة كانت قبل حوالي ساعة ونصف سيدي.

– تبًا.

صحت وأنا أترك حقائبي كلها تسقط أرضًا وركضت خارج الباب والرسالة ما تزال في يدي، أوقفت أقرب عربة مارة وصعدت إلى جانب السائق المندهش وأنا أصيح في وجهه أن ينطلق بنا حالًا إلى ريتشموند.



أنقدته أكثر من حاجته من مالٍ وبالفعل انطلقت الخيل كالبرق عبر الشوارع متجاهلًا صيحات صاحب المنزل وحقائبي وكل شيء آخر.

تلوى الطريق حولي بسرعة وطوال تلك الأميال كان قلبي مضطربًا، ينبض بعنفٍ. توسلت في داخلي لجينينجز أن يتفاءل، أن يتمسك بالأمل أكثر قليلًا، كنت على بُعد دقائق من إخباره بأن لمشكلته حلًّا، بأنه لم يعانِ من مشكلة في العصب البصري أو هلوسات أو أي شيء مما قاله د. هارلي. لم يكن مجنونًا ولن يؤذي أحدًا يحب، بل على العكس. كان قد مُنح شفافية دون أن يشعر، كان بوسعه استغلالها أو إغلاقها للأبد إن أراد.

تسعة شهور فقط وسيعود رجلٌ جديدٌ تمامًا.

تسعة شهور فقط يا جينينجز، تبًا.. أرجوك انتظر حضوري.

وصلت العربة إلى الطريق أمام البيت فأوقفتها عنوة وقفزت أركض إلى الباب الأمامي، لم أعد شابًا لكنني وجدت داخلي طاقة لكي أقطع تلك الأمتار الإضافية حتى الباب الأمامي للمنزل المظلم. طرقت بعنفٍ غير قادر على التقاط أنفاسي، وسمعت الخطوات بالداخل.



دعوت مرة تلو مرة إلى أن فُتح الباب ورأيت المرأة المسربلة بالسواد، حينها عرفت أن الأسوأ قد وقع.

* * *

عجزت عن التعرف إلى وجهها، لم تكن ماري وتوقعت من صغر سنها النسبي أنها مارثا قريبته. دون حاجة للحكي عرفت أن بعد رحيل جينينجز عن شروبشاير بصفة مفاجئة دفعها حدس المرأة من جديد لاتباعه إلى هنا. أشارت لي بالدخول دون أن تستفسر عن هويتي ورأيت رجلين يهبطان السلم سويًا على صوتي أصيح سائلًا عن جينينجز.

– جوناس؟

صحت ما إن رأيت الخادم لكن بقية الكلمات اختنقت في حلقي ما إن ألقيت نظرة خاطفة على يديه، كانتا مغطتين بالدماء. سقط الخطاب من يدي دون أن أعي أنني كنت أقبض على الورقة طوال هذا الوقت. انطلق الخادم راكضًا إلى الأسفل حيث أقف، لا أدري ما قاله لحظتها لكنني تبعته إلى الأعلى تاركًا المرأة الباكية في الأسفل. لم أرغب في رؤية ما كان على وشك أن يريني إياه، لم أرغب في التأكد.

لكنه فتح الباب ودلف إلى الحجرة بصحبة رجل آخر لم اعرفه. وهناك رأيت جينينجز ممدداً في فراشه، مغمض العينين للمرة الأولى منذ أن قابلته. كان قد زال عنه الرداء الأسود وارتدى لباس نوم كان ابيض قبل أن يصير احمر دامٍ. سمعت كلمات من وراء ظهري فأدركت أن جوناس يخبر الرجل الآخر بهويتي. كان الفراش نظيفًا حول جينينجز لكن الأرض بين فراشه والنافذة كانت بحيرة من الدم.

رجل الدين الطيب نحر عنقه بموس حلاقة كان ملقى على الأرض وسط الدماء يلمع في شمس الظهيرة.

التفت إلى الرجلين مطالبًا بتفسير دون أن أقوى على النطق بالكلمات فتطوع جوناس بالشرح.

أخبرني أنه كان قلقًا بعد ما قلته له الليلة الماضية والتحذير الذي أخبرته به، عزم على البقاء ملازمًا فعلًا للسيد جينينجز قدر ما كان في استطاعته. بعد رحيلي بقليلٍ جاء إليه السيد جينينجز مرعوبًا وملتاعًا. سلمه الرسالة وأخبره أن عليه إيجادي بأي طريقة. وبهذا انطلق الخادم الى المدينة باحثًا عني.



لكنه بالطبع لم يجدني في المنزل، واخبروه هناك بأنهم لا يعرفون مكاني. لذا عاد إلى سيده الذي رفع رأسه بأمل للحظة لكن حين لم يجدني بصحبة جوناس عاد ليغوص في مقعده واختفى نور عينيه تمامًا. أمر جوناس بالرحيل وتركه وحده. بقي جالسًا في مقعده صامتًا حتى الثالثة صباحًا، لم يكتب حرفًا، لم يقرأ، لم يغادر الغرفة المظلمة حتى جاء جوناس وساعده على الصعود لغرفته. أضاء جوناس الشموع وساعد سيده بجلب ثياب النوم ثم تمنى له ليلة سعيدة ورحل.

ربما كانت كلماتي هي ما حرَّك جوناس وربما كان حدسًا لكنه لم يَعُد مرتاحًا كما أخبرني، تعبيراتُ وجه سيده كانت مريعةً حين ساعده على الصعود لفراشه. فصعد إلى الأعلى مرة أخرى ليجد الباب شبه مفتوح، الشموع على جانبي السرير كاملة الإضاءة والسيد في ثياب النوم. كان يميل على جانب الفراش متحدثًا بعنف إلى نقطة ما. وقف جوناس على الباب ناظرًا إلى الفراغ بالداخل ثم سأل السيد جينينجز:

– هل أستطيع مساعدتك سيدي؟

– لا.

قالها جينينجز بحدة فنظر جوناس إلى الأرض مرة أخرى ثم إلى سيده الذي حدق به في إشارة واضحة بأن عليه الرحيل. ثم أغلق الباب ورحل. لكنه عجز عن النوم من القلق. جاء خلسة مسرعًا إلى المنزل بحثًا عني من جديد وعاد ليبدل ثيابه بهدوء ثم صعد من جديد مع شمعة ليطمئن. كان الباب مفتوحًا مرة أخرى والغرفة غارقة في الظلام. أضاء الغرفة قليلًا بفعل الشمعة في يده ليفاجأ بالسيد جينينجز جالسًا على مقعده أمام النافذة صامتًا ومستغرقًا في أفكاره الخاصة، لم تكن عادته أن ينهض في تلك الساعة ويرتدي ثيابَه كاملة، أو أن يطفئ الشموع ليجلس في الظلام. همس جوناس عارضًا المساعدة لكن جينينجز لم يرد فقال جوناس من جديد:

– هل أشعل الشموع سيدي؟

حينها نطق جينينجز:

– افعل ما تراه مناسبًا جوناس.

كان صوته باردًا وخاويًا تمامًا، وكأنه فرغ للتو من الشجار وصار متعبًا غير قادر على رفع جسده من المقعد. لكن جوناس كان خائفًا من الإلحاح؛ لذا

أوقد الشموع وعرض المساعدة مرة أخرى، وحين جاءه الردّ بـ "لا" حادة وغاضبة ترك الغرفة.

بعد ساعتين صعدت إلى الأعلى من جديد وكان الباب مغلقًا هذه المرة، حين حاولت فتحه جاءني صوته غاضبًا من الداخل بألا أزعجه من جديد، لم يكن يتحدث؛ لذا خمنت أنه بدأ ينام أخيرًا وكنت مسرورًا لأنه قرر الحصول على قدرٍ من الراحة. هبطت إلى فراشي وقد قررت النوم بدوري. رغمًا عني استغرقت في النوم حتى السادسة صباحًا، صعدت ولم أسمع أي صوت آتٍ من الداخل. فخمنت أن السيد ما زال نائمًا. كنت مرتاحًا فتركته وارتديت ثيابي، قمت بمهامي كالمعتاد. وحين أتى توماس رجل العربة تركت البيت في عهدته وذهب محاولًا البحث عنك من جديد. بعد أن عدت إلى البيت انتظرت حتى أصبحت الساعة التاسعة، ثم العاشرة، ثم الحادية عشرة.

بدأت أشعر بالقلق ونهشتني الظنون، في طوال سنوات خدمتي لم يتأخر السيد جينينجز أبدًا مهما كان متعبًا عن العاشرة أو العاشرة والنصف؛ لذا صعدت إلى الأعلى للاطمئنان ووجدت الباب موصدًا، حاولت فتحه ثم طرقت وحين لم أجد إجابة حاولت دفع الباب.



لم يأتِ أيّ صوتٍ من الداخل فأسرعت إلى توماس كي يساعدني لكسر الباب وقد فعلنا، ورأيناه هناك.

لم يكن جوناس في حاجة إلى إضافة المزيد لأنني رسمت بقية الصورة بنفسي، جينينجز عجز عن انتظاري حتى الصباح. لا بُدّ أن الشيطان الذي زاره قد بثّ في عقله سمومه طوال الليل، هدده بي، هدده بحياته، في النهاية أضعفه حتى ما عاد قادراً على المقاومة. لم يعد يرى النور أو الأمل أو الخلاص.

انتهى السيد جينينجز هنا على الأرض واختفى قرينُه بعد أن أتمّ مهمّتَه، كنت على بُعد ساعاتٍ قليلة من إنقاذ حياته لكنني لم أفعل، لم أفعل.

أخبرني جوناس بأن عائلته في طريقها إلى هنا في تلك اللحظة وأن السيدة ماري في طريقها إلى هنا، وأن زملاء الرجل من الإبرشية ورئيس الإبرشية قادمون كذلك بعد أن أرسل جوناس رسالة للجميع. كان الكل حزينًا منهارًا، وحين هبطت السلالم رأيت مارثا الباكية، ماري كانت قد وصلت لتوها واحتضنت الفتاة لتبكي معها. حدث كل ما توقعه جينينجز حين تخيل موته في فتحة المنجم.



بينما أخطو خطواتي الأخيرة إلى خارج المنزل رأيت بعض الرجال بأردية الكهنوت السوداء يهبطون من عربة، كلهم كانوا ملتاعين، لا أحد لائم ولا غاضب. الكل لم يصدق أن جينينجز قد يقدم على فعل كهذا. لم يعرف أحدٌ إلى أي حدٍّ كان يعاني، لم يعلم أحدٌ بالحقيقة سواي.

كنت الوحيد القادر على مساعدته لكنني تأخرت للأسف؛ ابتعدت عن البيت وعن الأشجار والسور والعربات، تمشيت بعيداً حتى غابت أصواتُ الجميع عن سماعي. كنت أتنفس بصعوبة وأنا أتذكر وجه الرجل الباكي مبتسماً وهو ينظر لي في أملٍ، حدث هذا الليلة الماضية فقط.

ما زالت الابتسامة بين خطّي الدموع على وجهه وهو راكع بين الشموع أمامي، ما زالت حاضرة وكأنه حيّا في هذه اللحظة. حظى بلحظة الأمل تلك بعد ثلاث سنوات، أحد عشر أسبوعاً وأربعة أيام. قبل أن يعلن استسلامه.

نظرت إلى السماء طالباً مسامحته، ثم جلست أرضاً والمنزل والذكرى خلفي..

وبكيت بحرقة...